# الأمير في دولة القراصنة

## رحلة الأمير لودفيغ هيرمان فون بوكلير - موسكاو إلى تونس (١٨٣٥)

مصطفى النيفر

### المستشرق في مرآة الاستشراق

لن نضيف جديداً بتأكيدنا أن الاستشراق بمختلف مدارسه وتياراته ومراحل تطوّره إنما يكشف عن عقلية الدارس بقدر ما يضيء ملامح المدروس. فقد أثار الاستشراق الحديث[1] أشكالاً مختلفةً من ردود الأفعال. كان أولها الرفض الغاضب ثم سرعان ما أعقبه الرد السجالي، ثم الرد المسلّح بالعدّة العلمية الاستشراقية ذاتها. ولا يزال الاستشراق يَرِدُ عبر موجات وأشكال متعددة تعدد المناهج الأكاديمية المتعاقبة وشبكات التحليل المطروحة لاحقاً. بدأ الاستشراق كامتداد للمشروع الحداثي الذي صاغه فرنسيس بيكون عندما اعتبر أن سيطرة الإنسان على الطبيعة تمتد بقدر امتداد معارفه. وبما أن المجتمعات «الأخرى» بشرقها العربي الإسلامي وصينها وهندها وفارسها... مؤهلة كجزء من الطبيعة، للرضوخ لسلطة أوروبا المتوثّبة، كان من الضروري جمع أكبر قدر ممكن من المعارف عن هذه الشعوب لغةً وديناً وثقافةً وسياسةً وتاريخاً وجغرافية.

---

(1) يشير سوذرن R. S. Southern في كتابه عن تاريخ المجامع أن مجمع فيينا بقراره تأسيس كراسٍ لدراسة اللغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية، قد أعطى إشارة الانطلاق للدراسات الاستشراقية Histoire des conciles. Editions du Seuil. Paris 1962, p. 83

وكما كان المستشرقون أجيالاً وموجات، فهم كذلك أنماط بشرية شتى حسب البواعث التي حرّكتهم والآفاق التي يسعون إليها. فهناك الاستشراق الأكاديمي في خدمة برنامج سياسي لدولة محددة. في هذا الشكل يُتْقن الدارس لغة المجتمع المدروس، وقد يؤلف كتباً لتعليم لغته أو يترجم بعض آثاره الأدبية القيمة، كما قد يحبّر بيانات الجيش الغازي. ولهذا التيار ممثلوه في كل بلد يتصوّر أن له مصالح في الفضاء العربي الإسلامي. وهناك تيار استشراقي آخر يمثّله بعض الأدباء والرحالة (أو الأدباء ـ الرحّالة) الذين لم يكونوا في الأصل يعملون في مؤسسة أكاديمية ولم يصاحبوا أو يرتادوا أو يستكشفوا لحساب جيش غازٍ أو شركة مناجم. يبحث هؤلاء في الأصل عن الفرار من عالم يخنقهم ويتصورون أنهم في عصر الثورة الصناعية والعقلانية الخانقة سيجدون في الشرق العربي الإسلامي أو في مجاهل إفريقيا أو في أي حضارة من الحضارات القديمة ما يفتقدونه في مجتمعاتهم. يتعقّب هؤلاء سراب السعادة الرومنطيقية أو مصدر إلهام يحرّك قريحة نضبت. علّهم يغرون بكتاباتهم الناشر والقارئ فيقبل على مذكّرات رحلة أو ديوان شعر. وهناك صنف ثالث غير الأكاديميين العاملين لحساب دولهم وغير الأدباء الباحثين عن مصدر إيحاء أو موضوع كتابة، وهم الصنف الضائق بعالم مصنّع ومعقلن أغلقت فيه أبواب المغامرة. وقد يلحق هذا الصنف بالقسم الأول أو الثاني عرضاً وبشكل مؤقت، فيتعاون مع سياسيي بلاده (أو غيرهم) أو يكتشف أثناء رحلاته «قدرات كتابية» فيسجّل انطباعاته مضيفاً أعماله إلى التراث الأكاديمي.

ولكن مهما اختلفت التيارات وتباينت الشخصيات فإن قاسماً مشتركاً يجمع بين آثار كل «المستشرقين» وهي مساهمتهم في نحت ملامح الشرق وفق مخيلتهم، بما تحتويه هذه المخيّلة من رغبات ومخاوف أي من فنتزمات وفوبيات. فكل إنسان، مهما تلفّع بالموضوعية والحياد العلمي، لا يدخل مجال البحث العلمي بِكْراً، بل يلجه وله من العمر عمر الأحكام المسبقة السائدة في مجتمعه. لذلك حفلت الكتابات «العلمية» الاستشراقية بالصور النمطية عن الإنسان الشرقي كما يتوقّعه الغرب أو كما يريده أن يكون. أراد الاستشراق، بكل تياراته وممثّليه، أن يكون الدارس المترفّع المتعالي المنكبّ

على دراسة الشرقي انكبابه على أي موضوع بيولوجي أو فيزيائي. ولذلك لم يوجد «استغراب» يدرس من خلاله الشرقي دارسه الغربي[1]. ولأن الطرفين غير متكافئين لم يكن ذلك بالوارد على خاطر مجتمع غربي يعتبر كل الوجود (بما فيه الإنسان الآخر) موضوعاً لمعرفته العلمية وبالتالي لسيطرته.

ولكن إن أفلح الاستشراق في نهاية الأمر في إقناعنا بأننا لسنا سوى ما يراه هو فينا، فلا أقل من أن نستفيد منه في الاطلاع على شخصية المستشرق ـ الدارس الذي صمم وخطط ثم رسم ملامح الشرقي. وبما أن مصيرَي الغرب والشرق متلازمان، فلنعكس الصورة ولنحاول تفكيك آلية تفكير المستشرق، لا لنعرف الشرقي بل لنفهم المستشرق الغربي.

أول ما يلمس في كل آثار المستشرقين (أكاديميين أو سياسيين أو أدباء أو رحالة مغامرين) قناعتهم العميقة الراسخة بأن عملهم علمي بكل ما تحمله عبارة العلم في الغرب من دلالة الدقة والصحّة. ورغم إقرار البعض بأنهم يلجون مجالات جديدة، فإنهم يعتبرون أن قليلَ معرفتهم صحيح، وأن مناهجهم الجديدة ستكشف لهم، إن عاجلاً أو آجلاً، البقية الباقية من الطلاسم المجهولة التي عجز المدروسون (أي منتجو الحضارة ذاتها) عن فهمها.

عن هذه القناعة تتفرع صفة أخرى نجدها عند كل المستشرقين، وهي الإحساس بالتمايز عن الحضارة المدروسة. فالعلم يقتضي الموضوعية أي انفصال الدارس عن موضوع دراسته وتعاليه عليه. وبين التمايز والامتياز (التفوق) خطوة صغيرة سرعان ما يقطعها المستشرق بيسر مسلّحاً بإحساسه المبدئي بأنه ممثل أعلى مراحل التطور الحضاري. يقف الدارس في أعمال المستشرق منفصلاً عن المدروس، وهو نتيجة لذلك (أو في نفس الوقت) أرقى منه. وبما أن أوغست كونت يعتبر المرحلة الوضعية أعلى مراحل التطور الإنساني يقف الشرقي ثابتاً في أولى مراحله. وكما يفتخر الطبيب ببقائه على

(1) انـظـر Edward Saïd. L'orientalisme (l'orient créé par l'occident). Edition Seuil. Paris 1978. الباب الأول: مجال الاستشراق، الفصل الأول: معرفة الشرقي.

قيد الحياة رغم معاشرته للمرضى، نلمس في كتابات الرحّالة إشارات إلى أن الانغماس في الحياة الشرقية لم يصحبه أي اختلاط، وأن الدارس نجح في تحصين نفسه ضد عيوب ونقائص الشرقيين. وحتى الملامح الشرقية التي قد تثير الإعجاب والتعاطف فإنها سرعان ما تُخفّف وتُلَطّف وتُعدّل بأحاسيس الشفقة أو التحسّر، أو الإشارة إلى أن الشرقي يعيش نعمة لا يقدّرها حقّ قدرها.

وعن الإحساس بالتمايز والتفوق وما يصحبهما من قناعة بأن الشرقي أقل مدنية من الغربي، يدعّم المستشرق جملة المقولات الصريحة أو المبطنة والنابعة في أغلبها من أفكار مسبقة. فالشرقي عاطفي شهواني دموي مندفع عنيف (ولا يرضخ بالتالي إلا للقوة) فوضوي كسول وخامل قَدَري محافظ (بالمعنى السلبي للكلمة). إنه «الآخر» الذي يبرز إيجابيات الهوية الغربية ويبرز تفوقها ويعلله. وفي المقابل فإن الغربي عقلاني رصين متثّبت مفكّر منظّم عامل ونشط جريء. كرم الشرقي سرف، وشجاعته تهوّر، شاعريته خيال غير واقعي، وسجاياه كلها سلوكيات فرضتها عليه بيئته، وحتى علومه وتشريعاته هي من فضل حضارات سابقة عليه أخذ منها ولم يطوّرها بل ربّما شوهها. وحصيلة كل ذلك أن الاستشراق صاحب فضل على الشرقي، إذ يكشف له عن نفسه التي بين جنبيه والتي لا يعرف عنها شيئاً، ويمنّ عليه بإطلاعه على جذوره التي لا يعرفها أو لا يقدّرها حق قيمتها. وبذلك يحقق الاستشراق هدفين، معرفة الشرق لكي يتمكّن من السيطرة عليه، وإقناع نفسه بأنه باعث كل الحضارات السالفة بل ووارثها كلها[1].

## سميلاسو من أوروبا إلى إفريقيا

لا يخرج الأمير هرمان فون بوكلير ـ موسكاو Fürst Ludwig Herman von Pükler-Muskau وأعماله عن اللوحة التي رسمناها آنفاً، بل إنه قد يعدّ (وعن جدارة) أنموذجاً تاماً للرحالة المستشرق. فرغم جهله باللغة العربية، وعدم انتمائه لدولة ذات مطامح وأطماع شرقية (آنذاك) فقد توفرت فيه الذهنية

(1) مصدر سابق ص‌ص 144 ـ 146.

وأغلب السجايا التي أشرنا إليها آنفاً. من ناحية أولى تجوّل الرجل من الجزائر إلى تركيا عبر تونس ومالطا ومصر والشام وفلسطين. فكانت أعماله مراجع الغربيين اللاحقين لمعرفة هذه الأجزاء من الشرق والمتطلّعين للإطلال على هذا العالم «الغريب» و«الساحر». ومن ناحية ثانية فإن كتابه المخصص للقسم الشمال إفريقي من رحلته (الجزائر تونس مصر) تحول عن غير قصد منه إلى وثيقة «تاريخية ـ علمية» يرجع إليها المؤرخون اللاحقون للكتابة عن تلك الفترة. وقد اعتمد مؤرخون وجغرافيون فرنسيون محدثون كتاب بوكلير موسكاو مرجعاً أساسياً لفهم جغرافية وتاريخ تونس في تلك الفترة. وفي هذا الإطار صدرت الترجمة العربية للأقسام الثالث والرابع والخامس من رحلته «سميلاسو في إفريقيا» Semilasso in Afrika المخصص لتونس[1]. ومن ناحية ثالثة فإن شخصية وعمل الأمير بوكلير تعد أنموذجاً معبّراً من نماذج المستشرقين الذين وجدوا في الشرق ما يسعى إليه الأوروبي فدعّموه بملاحظات ميدانية، ثم ساهموا في ترسيخها لدى مواطنيهم، ثم وفي فترة

(1) بوكلير ـ موسكاو: سميلاسو في إفريقيا (رحلة أمير ألماني إلى الإيالة التونسية في سنة 1835). ترجمة منير الفندري. نشر المؤسسة العربية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة». تونس 1989. وفي مطلع هذه الترجمة ورد التنبيه التالي من الناشر: «يُعْتبر كتاب سميلاسو في إفريقيا وثيقة هامة تتضمن معلومات إثنولوجية واجتماعية وأنتروبولوجية. وهو على هذا الأساس معين ثري يفيد المؤرخ ودارس المجتمع العربي في القرن التاسع عشر، ولهذه الأسباب سعت مؤسسة بيت الحكمة إلى تعريبه ونشره. لكن صاحب هذا الكتاب لم يلتزم حدود الوصف والعرض العلمي، بل ضمّن بحثه أحياناً نظرياته الخاصة في تفسير الظاهرة الدينية عامة والديانة الإسلامية خاصة. مع ما في ذلك من انحياز عقيدي لديانته التي يقابل بها ما يزعمه من تعصّب المسلمين. ولئن كانت الأمانة العلمية تقتضي إثبات الوثيقة على علاّتها، فقد رأينا أن لا ننشر ما لا فائدة توثيقية في نشره. كما رأينا أن لا نتصدى لمناقشة المؤلف بخصوص نظرته إلى الدين الإسلامي لأن كتابه ليس بحثاً في العقيدة فيُرَدّ عليه من هذا الوجه. وما أتى الحديث عن العقيدة إلا استطراداً، وهو استطراد لا يفيد دارس المجتمع العربي الإسلامي وإنما يترجم عن تصوّرات صاحب الكتاب الشخصية». ص 9.

لاحقة تحوّلوا إلى مصدر من مصادر الشرقيين أنفسهم لمعرفة أنفسهم (من خلال اللوحة الاستشراقية).

ولد الأمير لودفيغ هرمان فون بوكلير ـ موسكاو سنة 1785 في عائلة أرستقراطية ثريّة في سكسونيا شرق ألمانيا. وقد ورث عن والده سنة 1811 إقطاعاً هاماً بمنطقة أوبرلوستز Oberlaussitz جعله يتصرّف في مساحة تفوق الخمسمائة كيلومتراً مربعاً تضم بضعة آلاف من السكان. وبعد مؤتمر فيينا (1815) انتقلت مقاطعته إلى أملاك ملك بروسيا، فعوّضه الملك عن ذلك بإعطائه لقب أمير (1822). وكان بوكلير قد رسّخ مكانته الاجتماعية بالزواج من «لوسي» ابنة مستشار الملك البروسي هاردنبرغ Hardenberg التي كانت تكبره سنّاً (1816). وكانت الطبقة الأرستقراطية البروسية، التي ينتمي إليها، تعتبر الجيش أو السلك الدبلوماسي المجالين الوحيدين اللائقين بها. لذلك سعى بوكلير عن طريق صهره للحصول على منصب دبلوماسي في إستانبول، إلا أنه لم ينل مرغوبه. فظل حلمه بتمثيل مملكة بروسيا على ضفاف البوسفور حلماً دفيناً. ثم قبل على أن يكون مجرّد أمير يتردد على البلاط في برلين دون مهام مضبوطة. ورغم شهرته في الأوساط النبيلة الأوروبية وإتقانه لعدة لغات تمرّد على هذا الوضع لأنه اعتبر أن فيه تجميداً لمواهبه وحدّاً من طموحه. فاعتزل أول الأمر في قصره وانكبّ على هوايته المفضّلة: فن البستنة وتصميم الحدائق وتجميلها. ولقد كان لهوايته الشخصية هذه أثر لم يكن يتوقّعه، إذ ابتلعت ثروته وجزء من ثروة زوجته، وأوقعه كلَفه في ديون ثقيلة. عندئذ تفتق ذهنه عن فكرة غريبة سرعان ما وافقته عليها زوجته «المتفهّمة». فقد كان من رأيه أن يطلّق زوجته شكلياً ويسافر إلى إنكلترا حيث يقترن هناك بفتاة ثرية معتمداً على وسامته ولقبه وثقافته وصيته في الأوساط النبيلة الأوروبية. وسافر الأمير فعلاً إلى لندن وبعد محاولات عديدة عاد سنة 1822 بخفي حنين ليفكّر في مشروع آخر أكثر واقعية. إذ تجمّعت لديه في قصره كمية من الرسائل كان قد وجهها لمطلّقته من لندن، فنشرها سنة 1830 تحت عنوان غريب: «رسائل ميّت». وكان النجاح، غير المتوقع، بدايةً لسيرة قلمية لم يكن الأمير يحلم بها قبل سنوات قليلة. وكانت رسائله، رغم أسلوبها

الأدبي المتواضع، قنبلة ألقيت في أوروبا ثلاثينات القرن التاسع عشر التي توالت عليها الانتفاضات في جو صعود برجوازية فتيّة متوثّبة وأفول أرستقراطية هرمة متحكّمة. ضمّت الرسائل آراء جريئة ونقداً للأسرة والأخلاق والعادات والتقاليد وطرق التربية. ومما زاد في طرافة الرسائل آنذاك وجلب الأنظار لها، أن كاتبها أمير من المفروض أن يقف إلى جانب المجتمع التقليدي. لذلك أصبح الأمير بوكلير موسكاو نجماً من نجوم المجتمع متخطياً بذلك الأوساط الأرستقراطية إلى الأوساط البرجوازية المثقفة التي أطلقت عليه لقب «الأرستقراطي الديمقراطي». واعتبر الأمير أنه اكتشف قدره كأديب ومفكّر، فأصدر سنة 1834 كتاباً ثانياً ينمّ عن حقيقة تكوينه الأدبي «العصامي» وهو Tutti frutti الذي كان كما يدل عليه عنوانه خليطاً من الآراء والخواطر المتفرّقة حول المجتمع الألماني بشكل خاص. وقد ساهم كتاب توتي فروتي في تدعيم شهرة المؤلف ونجوميته، وأقنعه بالتالي أنه صاحب نظرية اجتماعية. حفل الكتاب الثاني بانتقادات للوضع السياسي في بروسيا وللطبقة الأرستقراطية (التي ينتمي إليها) ولأسباب تدهورها وانحلال القيم فيها. وعاب على الأرستقراطية قلّة طموحها وعدم ثقتها في نفسها وفي دورها التحضيري واكتفائها بحياة برّاقة زائفة بعيدة عن الأمجاد العسكرية الحقيقية. وفي سياق ذلك عبّر بوكلير صراحة عن ضرورة انتهاج سياسة استعمارية بروسية على النمط الفرنسي والإنجليزي لحل هذه المظاهر. فبالاستعمار تحل مشكلة الانفجار السكاني الألماني ويقع تمدين شعوب «همجية» وتعطى فرصة للشباب الألماني لصقل مواهبه وتنميتها من خلال الرحلات والاستكشافات والحملات العسكرية. وسيكون هذا المشروع حاضراً بين سطور كتاب رحلته إلى إفريقيا، كما سنرى.

في 12 يناير/ كانون ثاني 1835 أبحر الأمير بوكلير من ميناء طولون الفرنسي قاصداً عنّابة بالجزائر التي كانت تحتلها فرنسا. وكان يحمل معه رسائل توصية «لمن يهمه الأمر بالجزائر» ثم مصر، دون أن تخطر تونس على باله. وبقي الأمير حوالي شهرين بالجزائر ثم عبّر في إحدى رسائله إلى صديقه فون انزه Verhagen von Ense عن اعتزامه السفر إلى دولة القرصنة

Raubstaat (يقصد تونس). وبالفعل تحوّل في العاشر من أبريل/ نيسان 1835 من ميناء عنّابة الجزائري إلى ميناء طبرق التونسي الذي وصله بعد ثلاثة أيام. وخلال إقامته بتونس من منتصف الشهر إلى أواخر أكتوبر/ كانون أول من نفس السنة كان الأمير يرسل لأصدقائه مكاتيب مطوّلة بإمضاء سميلاسو[1] فكان صديقه الناشر يعمل بتوصياته فيعمد إلى تهذيبها ومراجعتها وينشرها تباعاً[2].

وقد بدا الدافع وراء زيارة بوكلير موسكاو لتونس لغزاً عند بعض الدارسين ومن بينهم مترجم الكتاب. وقد قُدِّمت بعض الفرضيات لتفسير سبب السفر والإقامة طيلة سبعة أشهر في دولة القرصنة. **الفرضية الأولى** هي أن إقامة الأمير بالجزائر صادفت اضطرابات على المستويين التونسي الصرف والتونسي الطرابلسي. وكانت تونس تعيش منذ 1830 ظروفاً استثنائية، من أهمها توالي طلبات التجار الدائنين الفرنسيين للدولة، وتعاقبت السنوات العجاف (محصول الزيوت والحبوب). فكلّف الباي وزيره شاكير صاحب الطابع بحل الأزمة، فانتهج سياسة صارمة أجحفت بالبلاد وأضرّت بأهلها[3]. وعلى المستوى الإقليمي، تفجّر صراع على الحكم بين أسرة القرمانلي بطرابلس فامتد أثره إلى تونس، وانتشرت شائعة تقول: «إن الدولة العلية العثمانية عزمت على حرب المملكة التونسية لإلحاقها بإيالة طرابلس»[4]. وقد استمرت الأزمة إلى مدّة رحلة بوكلير وسجّل أصداءها في رسائله. ولا ريب

(1) عن الاسم المستعار الذي اختاره الأمير للتوقيع يقترح هو نفسه تفسيرين من باب المزح. فهو إما يعني نصف متعب (من semi نصف، وlas أي متعب أو ضَجِر) أو نصف (lasso) الذي يستعمله رعاة البقر لربط المواشي.

(2) صدرت الأجزاء الخمس الأولى (حول الجزائر وتونس) بين 1835 و1836. أما أخبار رحلته في مصر فقد نشرت سنة 1837 تباعاً في الصحيفة الألمانية Augsburger Allgemeine Zeitung ثم جمعت في كتاب نشر لاحقاً سنة 1844 بعنوان «في مملكة محمد علي».

(3) أحمد بن أبي الضياف. إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. نشر وزارة الثقافة. تونس 1963 ـ 1968. 3/ 169 ـ 175.

(4) إتحاف 3/ 178 ـ 179 و3/ 202 ـ 204.

أن القناصل كانوا يمدّون دولهم بتقارير مفصّلة عن الوضع بالبلاد وعن حالة الباي الصحيّة المتدهورة، لكن مزيداً من المعلومات من الأمور المطلوبة دائماً[1]، وكان الأمير مصدراً من مصادر المعلومات عن كل ذلك. **والفرضية الثانية** هي أن بوكلير موسكاو كان يسعى لتحقيق ما بشّر به في كتابه توتي فروتي من ضرورة البحث عن أراضٍ صالحة للاستعمار التوطيني البروسي. وقد حفل كتابه بمعطيات سياسية وجغرافية واقتصادية وبشرية ومناخية تصلح أن تكون مادة لمعمّرين أوروبيين وكان توطين البروسيين هاجساً من هواجسه كلما وقعت عينه على أرض خصبة. أما **الفرضية الثالثة**، والتي مال إليها المترجم، فهي تلك المتعلقة بقصة العلاقة بين يوسف وكَبُّورَة إحدى بنات الباي الحاكم. وكان بوكلير قد تعرّف على يوسف هذا وافتتن به حتّى كاد يملأ رحلته بذكره وبأخباره. وكان يوسف مملوكاً من مماليك الباي بباردو فرّ صيف 1830 إلى الجزائر وانضمّ فوراً لجيش الاحتلال وترقى فيه حتى بلغ رتبة فريق. وقد روّج يوسف لقصّة ألهبت خيال الغربيين وبوكلير بشكل خاص، وملخّصها أن هروبه كان لافتضاح علاقته مع إحدى بنات حسين باي تونس. ورغم تضارب تفاصيل القصة مما يؤكد بطلانها، فإن الأوروبيين، الذين يتلقفون آنذاك كل أخبار الشرق المشحون في نظرهم بالقصص الجنسية الموحية بقصص الحريم كما يتصورونه من ألف ليلة وليلة صدّقوها[2]. ومن المؤكد أن بوكلير قدّر أن نقله تفاصيل جديدة عن هذه القصة الغرامية القادمة من مخادع النساء الشرقيات بالحريم من شأنها أن تلهب جو رواياته وتزيد في إقبال القراء على ما ينشره.

ومن المؤكد أن الفرضيات الثلاث لا تتعارض بل تتكامل. فكتاب الأمير

---

(1) في نفس الفترة التي قام فيها بوكلير موسكاو برحلته كان المبشّر Christian François Ewald يقوم برحلة مشابهة بتونس بترخيص من الباي «لتنصير يهود المملكة». وقد سجّل هذا المبشّر (من أصل يهودي) انطباعاته في كتاب نشر سنة 1837 وترجمته بيت الحكمة ونشرته سنة 1989 بعنوان «رحلة المبشّر إيفالد بتونس سنة 1835».

(2) سميلاسو.. المقدمة، ص 18 ـ 19.

هو عبارة عن توتي فروتي آخر، فيه ما يطلبه القارئ الأوروبي المتوسط من أخبار غرائب الشرق وسحره، وفيه معلومات عن ثغرات وعورات البلاد، وفيه تلويح بسراب كنوز وثروات منظورة ومحجوبة. في الكتاب كان الأمير البروسي يطوّر برنامجه لاستعمار قطر يتوطّن فيه الألمان، ويردّ الجميل للفرنسيين الذين أعطوه رسائل توصية بمدهم بمزيد الانطباعات عن تونس المتقلّبة، ويثري رصيده بقصص وطرائف ومعلومات عن هذا الشرق الفاتن الذي يحلم به الأوروبيون الضجرون.

## غايات الأمير ومقولات عصره

عندما سافر بوكلير إلى تونس لم يدخلها وعقله صفحة بيضاء. فإلى جانب «تجربته الجزائرية» (ثلاثة أشهر) كان مسلّحاً بعدة معرفية استشراقية حديثة يكثر من الاستشهاد بها لإثبات مقولاتها وتدعيم روايته. ومن هذه المراجع كتاب الرحالة الإنجليزي توماس شو Thomas Shaw الذي زار تونس قبله بحوالي قرن، والقنصل الأمريكي السابق مردخاي نوح Mordecaï Noah، والأثري كريستيان فالبي C. Falbe الذي زار تونس قبله بسنوات قليلة، والضابط الرحالة جرانفيل تانبل Grenville-Temple الذي زار تونس قبله بعام واحد. وقد اعتبر بوكلير موسكاو أن هذا الزاد صحيح ويقيني واعتمده كأداة فهم وشبكة تحليل[1]. بالإضافة لكل ذلك فإن بوكلير ـ موسكاو يحمل في ذاكرته ككل الأوروبيين معلومات كاريكاتورية عن الحروب الصليبية وغزوات الإسبان وشذرات عن عقائد المسلمين وعاداتهم تلك التي تكوّن جملة من المقولات المجرّدة والثابتة في نفس الوقت[2]. فكيف دخل بوكلير ـ موسكاو تونس؟ وما الذي كان يملأ رأسه وهو يستعد لولوج فضاء آخر؟

(1) من ذلك اعتماده كتاب مردخاي نوح قنصل أمريكا السابق بتونس لمعرفة ما أسماه خلاصة تاريخ تونس 82 ـ 89. وهي وإن لم تختلق معلومات في الجملة إلا أنها قراءة شخصية ومنحازة جداً. لكن بوكلير يعتمدها كمصدر موثوق.

(2) إدوارد سعيد، مصدر سابق 69.

لا ريب أن القصد الأول للأمير كان البحث عن قصص يرويها لقراء متعطشين للمزيد مما يؤيد ما في أذهانهم عن الشرق الغريب. لذلك لم يكلّف نفسه عناء التدقيق في أسماء المكان. فتونس من الناحية الجغرافية ليست جزءًا من الشرق بل إنها في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، لكنها في ذهن الأوروبي المتوسّط جزء من الشرق. لذلك لا يميز بوكلير (عن قصد) بين الشرق والمغرب، فيستعمل عبارات مختلفة للدلالة على المكان وسكّانه فهم في الغالب البربر Barbaresques وبلادهم هي بلاد البربر. ولكنه يتحدّث أحياناً عن البدو وتارة بالمسلمين وثالثة بالعرب ورابعة بالأتراك. ورغم تمييزه بين مختلف مركبات المجتمع التونسي (عرب، بربر، حضر، بدو، أتراك، زنوج) والخصائص الإثنية والأخلاقية لكل فئة[1] فإنه سرعان ما يضعهم في «سلّة واحدة» ويطلق في مواضع أخرى أحكاماً مطلقة وتعميمية عليهم. ولأن القارئ الأوروبي ليس على عين المكان ولا تهمّه الدقة العلمية، فإن الأمير لن يتحرى كثيراً في التسميات فالشرقي هو المسلم مشرقياً كان أو مغربياً، عربياً كان أو تركياً، بدوياً كان أم حضرياً، إنه باختصار الآخر. وبما أن القارئ الأوروبي يريد قصصاً كتلك التي يزخر بها خياله فإن الأمير الرحالة لم يتردد في مدّه بما يريد. ومن هنا تعددت الاستطرادات و«الطرف» والمبالغات التي تعكس هذه الصورة الجاهزة. يقول بوكلير لمراسله: «ولا بد أن أقص عليكم نادرتين تعكسان بصفة حيّة الأعراف السائدة هنا إحداهما مؤلمة والأخرى مضحكة، تبيّنت فيما بعد في صفاقس صحتهما كاملة... وإني يا عزيزي وثيق الأمل أن تجد رسالتي هذه طريقها علاوة عنكم، إلى بضعة ألف قارئ»[2]. وكمراسلي صحف التابلويد اليوم يبحث بوكلير عن المثير والغريب من الأخبار والذي يطابق المقولات السائدة لدى القارئ الأوروبي، لذلك لا ينقد أي خبر يخدم هذه الحاجة حتى وإن وقع في تناقض. يقول: «إن شذوذهم لا يقف عند حد السحر والساحرات ومصّاصي الدماء وأرقام الشؤم وحيوانات النحس والعيون المؤذية (وهم لا يختلفون في هذا عن أجدادنا

(1) سميلاسو، ص ص 105 ـ 107.
(2) سميلاسو، ص ص 242 ـ 247.

وبعض أحفادهم المعاصرين ومن بينهم أنا) بل يعملون أيضاً بالمبدأ اليهودي الأصل: ذبح القربان. فكلّما وضعوا حجر الأساس لمبنى نحروا خروفاً وسقوا الحجر بدمه... وأغرب من ذلك أنهم، على ما قيل لي، لا يقتصرون على الخرفان والماعز، فهذا أحد المصادر التي أمامي يفيد أن تركيّاً ثرياً يدعى الجلولي كان يموّن سفن القرصنة، وكلّما جمع مالاً وهَمَّ بدفنه نحر على التوالي ثلاثة من العبيد السود. وكان القصد من ذلك أن تسهر أرواح الضحايا على حراسة الكنز الدفين الذي سقته دماؤهم»[1]. في هذه النادرة العجيبة، التي ستسحر القارئ الأوروبي حتماً، يجمع بوكلير بين المقولات السائدة التي تشحن عقل الغربي: كنوز الشرق، القرصنة، السحر والطلاسم، القسوة والوحشية. ولا يهم أن يتناقض الراوي مع الواقع (فالقارئ لن يذهب للتحري) ولا مع ما قيل في موضع آخر من الكتاب (فالقارئ لن ينتبه تحت سحر هذه القصص). فالقربان الحيواني ليس عادة يهودية فحسب بل موجودة في جل الحضارات القديمة، والجلولي لم يكن قرصاناً بل ينتمي لأسرة من أكبر أسر المخزن، والأمير بوكلير اعترف في مواضع أخرى أن وضعية العبيد السود لم تكن متردية في تونس، والتطيّر ليس (باعترافه عن نفسه، خاصية شرقية). وكان بوكلير قد بحث عن أسرى القرصنة، طالما أنه كان كما قال بنفسه في دولة القرصنة، فلم يجد لهم أثراً. لكن صبره (وربّما خياله) أوقعه، حينما لم يكن يتوقع، على أسير قديم. يقول: «بينما كنت منهمكاً في وضع رسم قديم للمدينة دنا منّي مملوك مُسِنٌّ وخاطبني بلغة ألمانية سلسة إلى حد ما. كان هذا الرجل مسيحياً يدعى روزنبرج ولد قرب سالزبورغ وعمره الآن 65 سنة. وروى لي أنه عمل في صفوف الجيش النمساوي... ثم هرب من الجندية مع أخ له. ثمّ إنهما وقع اختطافهما من قبل قرصان تونسي واعتنقا الإسلام وصارا مملوكين للباي مدة أربعين سنة. وترجّاني بإلحاح أن أبذل ما في وسعي لمساعدته للحاق بوطنه قبل أن يموت. وقد وعدته بذلك ورأيت أن الظرف اختارني، لا أقول لتنصير كافر، ولكن لإدخال مسيحي مرتد في دينه

(1) سميلاسو، ص 108.

الأصلي دين الخلاص»[1]. ويسعى بوكلير موسكاو باستمرار إلى تحقيق ظن القارئ، الذي لا يتصور الشرق دون غزال ولا نخيل ولا جِمال أو قوافل، بتخصيص فقرة مطوّلة لوصف توقف قافلة. فيطنب في وصف الإبل والغنم والرعاة والتلال وعين الماء ويصف كل المشهد بأنه: «لوحة خلابة»[2].

وتتردد في كل فصول الرحلة رغم مُرّ النقد وصريح التجريح الإشارات الموحية بأن البلد غريب وعجيب. فالبلد يوحي له بأن ألمانيا كانت كذلك في القرن الثاني عشر[3] وعقائد القوم كان لها نظير في القرون الوسطى[4] وحتى مجوهراتهم تشبه في قبحها مجوهرات القرون الوسطى[5]. ومع كل ذلك فإنه في شطحة من شطحاته الرومنطيقية المتمردة على عقلانية عصره يقول: «تذكّرت عندما رأيت النسر يحلّقَ فوق رؤوسنا إحدى خرافات موزايوس Musäus. وتمنيت لو كان بوسعي أن أنتظر علَّ السمكة تظهر وعلَّ الأسد يظهر فيهديني شعرة من لبدته. وكل جائز في هذه البقاع. بَيْد أن هذا العهد الجميل عهد الخرافات والعجائب قد ولّى وانقضى. فقد صار الإنسان بالنسبة إلى القوى الخفية (الكائنة في الجو والسماء والماء) يتميّز بالفطنة الحادة والواقعية الجافة والاهتمامات السطحية»[6]. وسيبحث بوكلير في كل مراحل رحلته عن الشرق الأسطوري الذي ملأ خياله كأوروبي، فلم يجد كما روى غير النتونة والقذارة والحر والتخلّف والبعوض والعقارب والذباب والفوضى. لكنه سعى ما أمكنه أن يشبع تعطش القارئ فوزع بين سطور رسائله بما يؤيد المقولات السائدة في أوروبا.

ومن المقولات الأكثر انتشاراً في عصره: **القرصنة** (مع ما يصاحبها من

(1) سميلاسو، ص 241.
(2) سميلاسو، ص 345.
(3) سميلاسو، ص 49.
(4) سميلاسو، ص 244.
(5) سميلاسو، ص 174.
(6) سميلاسو، ص 55.

قصص الثروة والبذخ والثراء) **والجنس** (المرتبط أساساً بالجواري والحريم والحرية التي يسمح بها الدين من خلال فهمه لتعدد الزوجات). أما عن القرصنة فإنها كانت نشاطاً قد ولّى عهده في تونس منذ أواسط القرن السابق لزيارته. لكن هناك من الأساطير ما يصعب محوه، خاصة إذا كانت الروايات الشفوية تمدّها باستمرار بالوقود. فقد نقل الأمير رواية نيسان Nyssen (قنصل هولاندا والنمسا بتونس) حول شناعات القرصنة وهمجيتها وبربريتها[1] فاعتبر، بناء على ذلك، أن غزو الملك الإسباني لتونس (أواسط القرن السادس عشر) مبرر وشرعي[2]. وبما أن القرصنة (كالإرهاب في هذه الأيام) لصيقة في مخيلة الأوروبي بالشرق وبلد البرابرة خصوصاً، ذهب بنفسه لاستقصاء الأمر. فزار ميناء حلق الوادي في ضواحي تونس حيث كان يُنزَل الأسرى ويُسَخّرون في الأشغال الشاقة في انتظار فديتهم. فخاب ظنه إذ لم ير إلا: «صناعاً ينجزون مركباً جميلاً للباي... والمكان يسود فيه على العموم الطابع الأوروبي. ومن بوادر الحضارة أنه من بين جميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة لم نرَ لحسن الحظ سجيناً واحداً من المسيحيين الأبرياء»[3]. ثم زار المكان الذي توقّع أن يجد فيه ما يجمع بين القرصنة والنساء: سوق العبيد، فكانت خيبة أمل أخرى: «... تحوّلنا إلى سوق العبيد الذي كادت تنحصر معروضاته في هذا اليوم[4] على الزنجيات. ولم نلاحظ في معاملة الرقيق أي

(1) سميلاسو، ص 437 ـ 438.

(2) سميلاسو، ص 83 ـ 84. ويلاحظ الخلط المقصود أو غير المقصود. فقد كان غزو الأوروبيين للسواحل التونسية وعبثهم فيها منذ القرن الحادي عشر وهو أسبق على القرصنة المغربية. أما غزو شارل الخامس الذي ترك جراحاً لصيقة في الذاكرة التونسية فإنه لم يكن لرد القراصنة بل جزء من سياسة توسعية إسبانية.

(3) سميلاسو، ص 150 ـ 151.

(4) لم يكن انعدام العبيد في السوق يومها فقط. إذ إثر احتلال فرنسا الجزائر (تموز/ يوليو 1830) أجبر أسطول فرنسي باي تونس (17 يوليو/ تموز 1830) على توقيع معاهدة مذلة فتح بمقتضاها السوق المحلّي للتجارة الفرنسية وكُسر حق احتكار وتوريد بعض المواد، ومنع بشكل نهائي «القرصان على مراكب التجارة وإبطال ملك الأسرى» إتحاف 3/ 168 ـ 169. ولا يتوقّع أن يجهل بوكلير ذلك.

أثر للخشونة أو الفظاظة، وبدا لنا المكان على الإجمال أقرب إلى مكتب باريسي لتأجير اليد العاملة من سوق شرقية لتجارة العبيد. فحتى الغبطة التي يبديها الواحد من هؤلاء العبيد، حالما يدخل في حوزة مشترٍ، ظهرت لنا شبيهة بسرور الأُجراء المترشحين في المكاتب المذكورة حينما يسعفهم الحظ ويقع انتدابهم لشغل ما»[1].

ولم تغادر ذهن الأمير قضية المرأة كموضوع جنسي شرقي جوهري. فبعد زيارة سوق العبيد، سعى لتنسّم أخبار الحريم الملكي ليدعّم ما هو معروف بالسماع عن هذا المكان المشبع بالمتعة. يقول: «بوسعك أن تتصوري مدى البهجة التي اعترتني وأنا أتجوّل في الموضع الذي شهد مغامرات صديقي يوسف. فلم أتمكّن من تحقيق رغبتي في الحصول على معلومات إضافية... أما عن الحسناء كبّورة فقد حجبتها عنّي شبابيك الحريم»[2]. وهكذا لم يعد بوكلير بخفّي صديقه يوسف بل إنه استنتج من ذلك أن عدم مشاهدة شيء من فنتزمات الغرب لا يعني أنه «لا يوجد شيء» بل برر ذلك بإخفاء الأمر وراء الشبابيك. وسيظل موضوع المرأة والجنس الشرقيين أحد هواجسه الأساسية، كما سنرى. ورغم اختلاسه النظر وروايات زوجات القناصل عن حقائق الحياة في الحريم ستعود له بالخيبة وراء الخيبة. لكن الأساطير أقوى من الواقع خاصة إذا كانت رومانسية.

وككل الغربيين الذين يدّعون معرفة «الشرق» فإن بوكلير ـ موسكاو لا ينفك يعبّر، قولاً وسلوكاً، عن تمايزه عن المكان الذي هو بصدد زيارته أو دراسته. فعندما يقارن بين عادات الشرقيين ـ التونسيين وعادات الأوروبيين (ورغم وجود عادات يعترف بأنها جديرة بالنقل لأوروبا) يؤكد: «أن ما يزخر به هذا العالم مختلف كل الاختلاف عن عالمنا»[3]. ولباسهم التركي الفضفاض: «يلائم للغاية حالات معيّنة، كركوب الخيل أو السير المتهادي

(1) سميلاسو، ص 175.
(2) سميلاسو، ص 129 ـ 130.
(3) سميلاسو، ص 154.

على الطريقة الشرقية أو جلوس القرفصاء على الأريكة»[1]. وحتى يوم الجمعة الذي هو يوم عطلة المسلمين فإن لبوكلير تجارب مرّة معه عمّقت إحساسه بالتمايز مع الشرق: «لم أكن أعير يوم الجمعة اهتماماً خاصاً ولا أتطيّر بنحسه. ولكن تغيّر الحال فأصبحت أقرأ لذلك حساباً وأعمد على عدم تعيين هذا اليوم كموعد للارتحال أو أجلاً لتنفيذ مشروع يكتسي أهمية»[2]. ولذلك كان الأمير ينزل كلما أمكنه ذلك عند القناصل أو نوابهم في كل محطة يحط بها، وإذا أجّر منزلاً فإنه يعمد إلى تأثيثه على النمط الغربي ويجهّزه بلوازم الراحة والرفاه الأوروبي المعاصر، خاصة وإنه كما عرّف نفسه مولع بعطر fraîcheur de Vendôme[3]. وقد كاد الأمير أن يطير فرحاً عندما وجد في منتصف طريق العودة وبعد طول فراق للطبخ الغربي، طباخاً أوروبياً عند أحد التونسيين[4]. وقد كانت أسعد أيام إقامته بتونس بعد عودته وفي انتظار رحلة الإياب. فقد دبّج صفحات في مدح أصدقائه القناصل وأصدقائهم من التجار الأجانب وما أحاطوه به من حياة غربية: الخمر، الأكل الأوروبي الطيب، الحديث بلغات وفي مواضيع يحبّها[5].

وقد تلتقي المقولات السابقة كلها في تصور محوري حاضر من أول العمل إلى آخره، وهو إلحاح الأمير هرمان فون بوكلير ـ موسكاو على الأصول الأوروبية للمكان الذي يزوره. ولا يعود ذلك إلى كتب علماء الآثار التي اصطحبها معه وكانت بَوْصَلَتُهُ في التعرّف على تونس فحسب، بل يعود كذلك إلى تصور كان شائعاً في أوروبا ملخّصه: أن الشمال الإفريقي امتداد جغرافي طبيعي لأوروبا (روما قديماً). ويعني ذلك أن الفترة العربية الإسلامية ليست سوى حادثة عرضية. وينعكس هذا التصور في الصفحات المطوّلة في وصف أهم المواقع الأثرية الرومانية أو البيزنطية (قرطاج، دُقّة، زغوان،

(1) سميلاسو، ص 38.
(2) سميلاسو، ص 57.
(3) سميلاسو، ص 169.
(4) سميلاسو، ص 404.
(5) سميلاسو، ص 432.

الجم، سبيطلة، تالة. . .) وإيراد الأسماء الرومانية للمدن العربية المأهولة والرومانية الأصل (سوسة، بنزرت، الكاف. .) وفرحته في كل مرّة يجد أحجاراً أو رخاماً رومانياً مستعمل في بناء عربي. بل قد يتصوّر ذلك دون المعاينة، كتأكيده على أن جامعي الزيتونة وعقبة بن نافع بالقيروان (اللذين لم يشاهدهما) بُنيا بأحجار رومانية ورخام. وقد ذهبت قناعته إلى حد تصور بناء مدن عربية أصلاً على أسس رومانية أو إسبانية كما هو الحال في القيروان(1) والمهدية(2). وذهب إلى حد اعتبار جامع الزيتونة مؤسساً على أنقاض كنيسة إسبانية(3). وعندما عاقه المطر من السفر وأجبره على المكوث بين أنقاض مدينة أوتيك الرومانية قارن نفسه ببطل روماني قديم وتأسّى به(4).

بهذه الشحنة دخل الأمير البلاد وعلى ضوئها فهم الأحداث وحللها ونقلها مطمئناً إلى القراء مدعّماً لديهم ما في مخيلتهم (ومخيّلته). فكيف نظر من خلال هذه النظّارات المُشَوَّهة للمكان والإنسان والمؤسسات؟

## رؤية الأمير للمكان والفضاء المُؤَنَّس

ليس الشرق بشراً فحسب بل إنه قبل ذلك (أو مع ذلك) مكان خاص له شحنة خيالية خاصة. وقد واجه الأمير المكان بقلب حافل بعواطف التطلّع والشوق والرهبة. فقد توجّه إلى تونس منطلقاً من الجزائر، أي من بلد دخلته «الحضارة الغربية» وتمهّدت فيه الأمور (على الأقل في المناطق التي زارها) إلى بلد لا يزال يحتفظ في ذهنه ببكارته البربرية المتوحّشة. أشعرته نظرته

---

(1) سميلاسو، ص 271.

(2) سميلاسو، ص 297.

(3) لم يزر الجامع المذكور ويبدو أنه قد اختلط عليه الأمر، إذ تعتبر فرضية أوروبية أن الجامع بني في أوائل القرن الثاني الهجري قرب (أو على) مكان كنيسة بيزنطية. وهو أمر غير ثابت من الناحية الأركيولوجية. أما الإسبان الذين احتلوا تونس في أواسط القرن السادس عشر فقد انتهكوا حرمته وجعلوا منه مربطاً لخيولهم.

(4) سميلاسو، ص 60

الأولى للساحل التونسي بأنه يواجه: «ساحلاً عظيم الخطر، لو حصل وقذف بنا الريح على كتله الصخرية لكان مآلنا الرسوب في رمال الشاطئ حيث يعيش أعراب همجيون شبه مستقلين عن أية سلطة وقل من نجا من أذاهم»[1]. وكما يتخيّل بوكلير الأعراب الهمج فهو يتوقع الصحراء مقترنة بالشرق، ويتمثّلها كوحش مخيف يهجم على الخُضْرة، يقول: «إذا حوّلنا نظرنا لاحت لنا عيّنة صغيرة من الصحراء، أعني بسيطاً رملياً قاحلاً أصفر مخيفاً تخاله وكأنه يتسرّب إلى داخل القطر ليقف عند سفح جبال زرقاء تناطح السحاب»[2]. ولم يكن بوكلير يواجه رمال الصحراء البعيدة عن الشمال التونسي، بل كانت رمال الشاطئ، لكن المغامر رأى منذ البداية ما كان يود أن يراه.

ومن خصائص المكان الشرقي (المقترن بالصحراء) الحرارة وإشعاع النور، ولذلك صدم الأمير أول أيام إقامته بالطقس البارد. ومع مرور الأيام وتوغّله نحو الجنوب ارتفعت درجات الحرارة. فأصبح يشكو من الحرارة وما يصاحبها من عطش. يقول واصفاً حاله وملقياً باللوم على الأهالي: «لا يوجد في كامل صفاقس قبو واحد! وليس هناك من وسيلة أخرى لتبريد الماء سوى إدلائه إلى قاع الجب. وبما أن ماء الجب لا يبرد إلا قليلاً، فإن المرء لا يتمكّن من إطفاء عطشه. وهو ما يتحوّل على مرّ الأيام إلى عذاب حقيقي. وكم رأيتني مستعدّاً لدفع مائة فرنك مقابل الحصول على سطل من الثلج.... وكان هذا الحرمان مشكلتي الوحيدة في هذا المناخ. وليس الذنب في ذلك المناخ بقدر ما هو ذنب الأهالي وجبلهم على الخمول والكسل»[3]. وفي موضع آخر يشير إلى آثار الشمس على الفضاء الطبيعي والمؤنّس فيقول: «كانت الشمس ترسل أشعّتها بغزارة على الطلاء الأبيض الناصع، فلم أتحمّل ذلك والتجأت لأول مرّة إلى استعمال نظّارات وقائية زرقاء، أنصح بها كل غريب يزور البلد»[4]. وكما يتلازم الشرق بالصحراء والشمس والحرارة، فإن

(1) سميلاسو، ص 30.
(2) سميلاسو، ص 33.
(3) سميلاسو، ص 314 ـ 315.
(4) سميلاسو، ص 187.

السراب من لوازم المكان. لذلك يسهب في وصفه ومما قاله: «لم نرَ (بالصحراء) شجرة واحدة عن قرب ولا عن بعد. لكنّي شاهدت عوض ذلك لأول مرة خاصية تعرف بها الصحراء ويسمّيها الفرنسيون mirage [سراب]. لقد تخيّل لنا فجأة أننا أمام بحيرتين كبيرتين ورائعتين تتوسطهما جزر كبيرة مكسوّة بشجر صغير. وذهب بنا الظن إلى حد مشاهدة سفن فوق البحيرتين. وأنعشنا هذا المشهد الجميل إلى درجة أننا تساءلنا عن اسم هذا البحر الوضّاء كالمرآة... ولم نتحقق من الخدعة إلى أن اقتربنا من على بعد خمسمائة خطوة تقريباً، بحيث اختفى عن الأنظار بالسرعة المذهلة التي جاء بها دون أن يترك أي أثر»[1].

في الفضاء الشرقي، كما هو الحال في كل فضاء، هناك النبات والحيوان كمعطيات أساسية في الديكور الـ «إكزوتيك». ولقد ركّز بوكلير موسكاو على النباتات بشكل خاص، بالنظر لاهتماماته الخاصة. فكان يفصّل الحديث عن أنواع النباتات التي يشاهدها من حضري وبرّي. لكنه لا ينسى نصيب القارئ الأوروبي الذي سيقرأ كتاباته أمام مدفئة في شتاء أوروبا. ففي حديقة قصر يذكر أشجار التوت والبرتقال والسرو والصنوبر... لكنه لا ينسى المسحة المحلّية الشرقية فيقول: «... وقد اشتمل البستان على نخلة رائعة الجمال تتدلى منها عراجين ثقيلة من ثمرها الأصفر الذهبي. فكانت هذه أول مرّة نرى فيها نخلاً بثمره. مع العلم أن هذا الثمر لا يدرك النضج الذي يجعل أكله مستساغاً، لذلك يظلّ متعة للبصر دون غيره من الحواس»[2]. ولا يشير الأمير إلى من أمدّه بالمعلومة حول عدم إدراك التمر أو البلح النضج وبقائه معلّقاً للزينة، لكنه لم يشر لاحقاً إلى تذوقه التمر ولذلك حكم بأن: «النخل الجميل يعتبر أفخر زينة للمناطق الإفريقية»[3].

والشرق في مخيّلة الأوروبي العادي (رجل الشارع كما يقال اليوم) حافل

(1) سميلاسو، ص 262.

(2) سميلاسو، ص 133.

(3) سميلاسو، ص 305.

بالحيوانات «الأكزوتيك» التي تصلح للصيد وخاصة منها الأسود. وقد كانت تونس قبل الميلاد مصدراً من مصادر توريد الحيوانات الوحشية لروما، لكن هذه الضواري انقرضت في عمومها وخاصة منها الأسود لتوالي صيدها ولأسباب عمرانية. لكن الأمير لم ينفك يسأل عن الأسود طوال رحلته وكلّما بدا له أثر مخالب توقّع أثر أسد أو لبوءة[1]، وكلما شاهد جلد أسد توقّع أن يكون قريباً من أجمة. وانتهت الرحلة بسراب آخر فلم ير أسداً واكتفى بتقبّل هدية متمثّلة «من جلود أربعة أسود، ذكر ولبوته وشبلين»[2]. وكما تطلّع الأمير إلى صيد الأسود أو حتى مشاهدتها، فقد تعقّب الحيوان الآخر الذي يقترن في مخيّلته بالشرق: الغزال. لكن حظه كان أوفر فقد تمكّن من متابعة قطيع من الغزلان دون أن يطاوعه قلبه: «على إطلاق النار على هذه المخلوقات الظريفة بين أحضان الطبيعة الطلقة... ولولا لذّة شوائها الفائقة (معلومة سماعية أخرى) لاعتبرت الإقدام على صرعها شراسة آثمة»[3].

ومع الغزال والأسود تبقى الجمال والخيل الحيوانات الأكثر حضوراً في مخيّلة الغربي عن الشرق. لذلك كانت الخيل ووصفها وتعقّب الأصيل منها في قصر الباي وخيمة الأعرابي من الثوابت في رحلة بوكلير موسكاو. ولعل هذا الاهتمام يرجع لكون الخيل من الحيوانات التي تنتشر في أغلب الفضاءات وقد اقترنت صورتها بالفروسية والحروب والغزو. وقبل كل ذلك وبعده فإن إمكانية نقل بعض الأصيل منها وتربيته وتهجينه بأوروبا من شواغل الأوروبيين. أما الجمال فإنها كالنخيل من لوازم الديكور الشرقي توصف فتمام اللوحة الطريفة لا غير. يقول الأمير واصفاً لوحة مشرقية تضم الفضاء الشرقي كما يعيش في مخيلة الغربي: «ساهم كل ما احتوى عليه هذا المكان، وبدون استثناء، في جعلي أشعر بنفسي في عالم جديد لا عهد لي به من قبل: الأهالي بأزيائهم المتنوعة، العادات والتقاليد الغريبة، الجمال العديدة التي منها

(1) سميلاسو، ص 239.
(2) سميلاسو، ص 392.
(3) سميلاسو، ص 321.

ما هو قائم في الساحات العمومية على ثلاث أرجل فقط بينما قيّدت الرابعة، ومنها ما بارك فتخالها بأعناقها المديدة المشرئبة طيوراً عملاقة. ومن بعيد على ساحل البحر جمال تتهادى في قوافل جرّارة، ومنازل شبيهة بالقصور تحيط بها جدران خربة مغشاة بالنبات الأخضر، لا نوافذ لها سوى بعض كوى ضيقة تغطّيها شبابيك من القضبان الحديدية. وأسوار المدينة المرتفعة المشرفة تعلو قلاعها رايات كالدم، والأسواق المختلفة تماماً عمّا هو معروف عندنا بما في ذلك دكاكينها الغريبة»[1]. لكن هذا الوصف الذي نقله عند نزوله بمدينة بنزرت لم يلبث أن زال كالسراب وساد حديثه عن حيوانات المكان ضيقه وقرفه من الذباب والبعوض والجراد والنحل والعقارب والقُمّل والبراغيث.

هذا عن المكان بتضاريسه ومناخه ونباته وحيوانه، فماذا عن الفضاء المُؤنّس؟ ماذا عن الحقول والمساكن وآثار الإنسان في الطبيعة؟ إن أول ما يسترعي الانتباه هو غياب الإنسان التونسي في ما أعجب به الأمير من ضياع وحقول وغروس وحضوره في كل ما لم يعجبه من بناء متداع أو أراض بور مهملة أو قذارة ونتونة وتخلّف وجهل ومرض. ويعود ذلك أساساً، إلى ما سبق وأشرنا إليه، من فكرته المسبقة حول أن وجود «الشرقي» في شمال إفريقيا جاء كصدفة وكعرض زائل. ولذلك كان الأمير يبحث أينما حلَّ عن الأصول الرومانية أو الإسبانية للمكان، وأسهب في تفصيل ذلك. فخصص للحديث عن المواقع الأثرية قدر ما خصص للحديث عن الأماكن المأهولة، دون أن ينسى المقارنة بين عظمة بناء الرومان (رغم قِدمه ونهب العرب لأحجاره ورخامه وأعمدته) وتواضع بناء الأهالي الشرقيين.

يصف الأمير بإعجاب واضح شمال البلاد وحقولها، دون أدنى إشارة (بالتلميح أو التصريح) للشرقي الذي روّض هذه الأرض وفلحها وترك عليها بصماته. يقول: «كان لسان الأرض التي تجولنا فيه والذي يمتد تقريباً على مسافة ساعتين طولاً وساعة عرضاً، في وضع فلاحي ممتاز لا نجد له نظيراً إلا في أوروبا (إضافة للمزروعات التي هي من خصائص هذه الربوع). وقد

(1) سميلاسو، ص 42.

تنوّعت فيه المناظر الطبيعية حسب التضاريس. فتداولت بكل روعة المساحات الفاتحة الاخضرار، تظللها غابة زيتون تنتج زيتاً رفيعاً، مع بساتين الكروم البهيجة التي تخللتها بانتظام أشجار التين واللوز المثقلة ثمراً، وأشجار الخروب وغيرها من شجر الغلال المزهر وتسيجها أسوار الصبّار وقد برزت من خلالها الورود اليانعة. ثم يفسح المجال لمروج يغطيها ضرب من زهر الوزال الرائج هنا برداء أصفر ذهبي وفيه ترعى ماشية طيّبة. واعترضتنا أحياناً غابات كثيفة من شجر الرمان، تمنيّنا لو كانت في فترة إزهارها. وحسب ما سمعنا فإنها تثمر ألذ رمان في كامل القطر التونسي»[1]. ثم ينتقل الأمير البستاني إلى وصف النباتات البرّية دون أن يخطر بباله الشرقي الذي أنتج كل هذا. ثم تكرر الموقف عندما زار الجنوب، ففي ضواحي مدينة صفاقس اندهش للبساتين: «التي تشكّل ظاهرة عجيبة. ذلك أنه في هذا الرمل الجاف الكثيف والعقيم في حد ذاته، وبدون سقي أو ماء مطر، وفي طقس تصل درجة حرارته في الصيف والخريف إلى ما بين خمس وعشرين وخمس وثلاثين درجة في الظل، تنبت تقريباً كل أنواع الأشجار المثمرة المعروفة في أوروبا إلى جانب أشجار التين واللوز والزيتون والرمّان والعنب وحتى الأزهار اليانعة، الأمر الذي يجعل العقل يحتار في سر هذه الخصوبة». ولم يخطر على بال الأمير الرحالة أن الشرقي قد يكون أحد أسباب هذه الخصوبة، لكنه سرعان ما ينتبه لوجود للشرقي (المسلم) لكن كسارق. يقول مواصلاً حديثه عن الضيعات في ضواحي صفاقس: «لقد هوت؛ بأتم معنى الكلمة؛ أشجار التفاح والإجاص تحت وطأة حملها، مثلما هو الأمر في أخصب أقاليم نهر الراين، بفارق أنه يسمح هنا لكل زائر أن يقطف من الغلال ما يشاء. واستغل رفاقنا من المسلمين هذه الحرية استغلالاً فاحشاً، إلى أني فكرت أنه من واجبي وضع حدٍّ لذلك»[2]. وإذا كان الشرقي غائباً في الطبيعة المؤنسة فهو غائب من باب أحرى في الطبيعة البِكْر، وبالتالي فإن المكان مؤهّل ليحل

---

(1) سميلاسو، ص 46.

(2) سميلاسو، ص 288.

الغربي محلّه، يقول: «امتاز السهلان اللذان قطعناهما بخصوبة رفيعة. وباعتبار حالة البوار التي هما عليهما فإنهما مؤهلان على أحسن وجه ليتحوّلا إلى مستعمرتين تستوعبان أبناء وطننا من الألمان المهاجرين والتائهين عبر أرجاء المعمورة»[1].

ولا يختلف الأمر عندما يتنقل الأمير من الريف إلى العمران، فبعد أن اشتكى من قذارة المدن ونتونة الهواء فيها وفسر ذلك بكسل الشرقي وخموله تحدث عن القرى الصغيرة (في ضواحي العاصمة) فقال: «من أبرز ما نستغربه كأوروبيين في هذه البقاع منظر القرى عندما نتطلّع إليها من بعد. فهي تلوح لنا شبيهة بالمدن، لا يميزها عنها سوى صغر حجمها، وإلا فإنها مثلها متراصة متلاصقة ولها نفس السطوح المنبسطة ونفس البياض الشامل. ولا عهد لنا في طبيعتنا الأوروبية بمثل هذه القرى المتراصة البنيان المتساوية الهندسة، التي تتجلى بين الخمائل القاتمة وكأنها كتل ملتئمة لألاءة»[2]. لم يستخلص الأمير شيئاً من الهندسة، ولم يبحث عن الرؤية الكامنة وراءها، ولا عن عقلية الشرقي أو نظريته في تهيئة الفضاء لأنه كان يتصور أن أفكاره المسبقة عن ذهنية الشرقي كافية. وعندما زار مدينة زغوان الرومانية الأصل، كرر دهشته من خصوبة الأرض ورونق حقولها وزروعها وأشجارها المثمرة ولم يبحث عن الشرقي الذي أنتج كل ذلك. لكن بمجرد ما أن زار الآثار الرومانية حتى سارع إلى تمجيد عبقرية الإنسان الروماني[3].

إلا أن أهم ما في الفضاء المؤنّس تتجلى، في كل الحضارات، في تهيئة المنزل من الداخل هندسة وتأثيثاً وما يصاحب ذلك من علاقات أسرية وتفاصيل خصوصية. ولقد دخل الأمير تونس وذهنه مشحون بصور ألف ليلة وليلة والشرق الشبقي. ودعّم «صديقه» المملوك الهارب يوسف كل تلك الفنتزمات بأخبار ما يجري في قصر الباي. لكنه خرج من البلاد دون أن

(1) سميلاسو، ص 356.

(2) سميلاسو، ص 73.

(3) سميلاسو، ص ص 228 ـ 233.

يشفي غليله وفي نفسه الكثير من الحسرة. ولم يكن هناك في الحقيقة ما يُرى لكن الأوهام صعبة الاقتلاع خاصة إذا تعلّق بها صاحبها.

لم يدخل بوكلير منزلاً شرقياً طيلة إقامته بتونس، باستثناء بعض القصور أو البيوت المريحة التي وُضِعت تحت تصرفه في المدن التي حلّ بها. لكن هذه البيوت كانت خالية من أهلها وخاصة من هاجس بوكلير: المرأة. وقد بدا له سراب الحريم الشرقي عندما رأى في مكتب وزير الباي الإيطالي جوزيف رافو Giusepe Raffo «لوحات ملوّنة تمثّل مشاهد جنسية»[1]. ثم دخل قصر الباي طامعاً في رؤية إحدى النساء المائتين التي قيل له إنهن يقمن هناك[2]، ولو من وراء الستار، فما تم له ذلك. وقد لجأ إلى نساء القناصل اللواتي سُمِح لهن من قبل بمقابلة حريم الباي، فروين له تفاصيل الحياة في البيت الشرقي. يقول: «في ما يلي ما روته لي إحدى نساء القناصل المقيمين في تونس عن زيارتها قصر باردو بمناسبة زفاف إحدى بنات الباي. قالت السيدة: كان على باب الحرم حارسان من فرقة المماليك. وعند وصولنا ذهب أحدهما ليعود بعد برهة بمترجمة القصر (وهي امرأة إيطالية) فرجتنا أن نتبعها. ودخلنا قاعة أسدلت على جدرانها ستائر المخمل الأحمر المطرّز بالذهب وتدلّت من سقفها أقفاص العصافير المذهّبة بالطلاء. وكانت امرأة الباي جالسة قبالة المدخل على أريكة عثمانية ترتدي أثمن الثياب وأفخمها ولكنها عديمة الذوق. وكان ذراعاها عاريين وكذلك رجلاها وقد انتعلت شبشباً صغيراً مطرّزاً. ولاح لنا من مكان جلوسنا وعبر الأبواب جمع غفير من الجواري، ولا أظن أن عددهن كان يقلّ عن الألف جارية... وفي الإبان ظهرت شابتان مسلمتان وشرعتا ترقصان رقصة رديئة رذيلة ومنافية للأخلاق ليس من اللائق أن أقف على تفاصيلها. وبلغ بنا الاستياء أقصى الحدود لما رأينا الراقصتين ترتميان في الختام على أعناق الخصيان السود وتتبادلان معهم حركات فاحشة في منتهى الدعارة... ثم

(1) سميلاسو، ص 93.
(2) سميلاسو، ص 94.

حمدنا الله لما دعتنا الأميرة للتحول إلى قاعة ثانية لتناول بعض المرطّبات. . . . وقد دار حفل الزفاف وسط البلاط المرمري البديع وتوجت نوافير الماء بمئات الفوانيس المضاءة على مختلف الألوان، فنتج عن كل هذا مشهد يوحي حقّاً بحكايات ألف ليلة وليلة. . .» ويسهب الأمير في وصف تفاصيل ليلة الزفاف عند الشرقيين كما نقلته له زوجة القنصل وبعض من له اطّلاع في الموضوع، ثم يضيف تفاصيل من شأنها تعويض تقصيره عن المعاينة بنفسه فيقول: «يشاع عن الحسناوات المسلمات أنهن شغوفات كل الشغف بربط الصلة مع خلان مسيحيين. غير أن تحقيق ذلك عويص وشبه مستحيل، وتكاد تنحصر إمكانية اللقاء في مكان واحد وهو سطوح المنازل حيث تعتاد النساء الصعود والمكوث وهن سافرات. ولئن بدأت الأوضاع في الجزائر تتطور فإن تونس ما زالت متمسكة بالعادات القديمة الصارمة»[1]. وقد عبّر بوكلير سابقاً عن خيبة أمله في صنف الجنس اللطيف الشرقي إذ قال: «كلّنا يعرف أن المرأة في هذه الديار تتوخى الاحتجاب فلا تبصر العين منهن شيئاً يذكر. لا سيما عين المسيحي الذي يحجر عليه حتى الاتصال ببنات البغاء المسلمات وكل من خالف ذلك يعرّض نفسه للإعدام. . . غير أني علمت أن النساء (التونسيات) على العموم سمراوات يتحلّين بأعين وقّادة وشعر فاحم وأسنان حسنة عموماً. ولكن مع هذا لا توجد من بينهن إلا القليلات اللواتي يجوز نعتهن بالجميلات. فمن المعروف أنهن يسعين بكل جهد إلى البدانة، فيعمد إلى إغصاصهن بال «الكسكسي» كما يعلف الإوز عندنا. ومن النادر أن تتميز إحداهن بصفة من تلك الصفات المحبوبة عندنا أي الطراوة والمرونة الجسدية. ولكن مع هذا لا تنعدم فيهن الرشاقة. . . . ولم يخيّل لي أبداً أن اللحاف الذي يحجبهن من أم رأسهن إلى أسفل أرجلهن يستر ما هو جذّاب، بل بدت كثير منهن في منتهى القبح والبشاعة»[2].

---

(1) سميلاسو، ص ص 118 ـ 123.

(2) سميلاسو، ص 117 ـ 118.

ورغم أن روايات زوجات القناصل وبعض ما اختلسه من النظر كان المفروض أن يطيّر سراب المرأة الشرقية من مخيّلته، فإنه ظل مسكوناً بهاجس التطلع إلى الحريم (المكان والمرأة) عن كثب. ولعل المخيّلة والتحريم لعبا دوراً في إذكاء شوقه، وفي تونس يقول العامة «لا يحلو إلا الممنوع». فبمجرد ما أن غادر العاصمة ودخل البادية (حيث لا حجاب ولا ستور) حتى أخذ يختلس النظر للنساء كل ما أمكنه ذلك. يصف مخيماً للبدو فيقول: «. . . كانت من بين النساء الغاديات الرائحات امرأة شابة تشبه أجمل الغجريات، وإن كانت ملفوفة بالوسخ والخرق. وكم وددت لو قرأت لي الكف على حِدَة (وأشياء أخرى). وما أن لاحظ البدو أني مهتم بها حتى صرفوها بسرعة. فلم تنصرف حتى حدجتني بنظرة باسمة عابثة من عينيها السوداويين، كلها وعي بما حازت عليه من إعجاب»[1]. والأمير يختلس النظر بحثاً عن الجمال الشرقي في الأعراس[2] وفي المآتم[3] فلا ينصرف إلاّ بالقليل من الرضا وكأنه يركض وراء سراب ألف ليلة وليلة المقيم في مخيّلته. وقد ساقت له الظروف فرصة كانت كافية لطرد آخر أحلام الشرق لكن لذة التطلّع للممنوع وإن كان دون المأمول لا تطالها أية لذة أخرى. يقول في فقرة تصوّر عقلية الغربي وما يجيش في مخيّلته حول الشرق: «من مميزات السطوح في هذه البقاع أنها تفتقر إلى حواجز تمنع من المرور من سطح لآخر، بحيث يستطيع المرء أن يتنقّل مئات الأمتار فوق رؤوس الناس دون أن يعترضه مانع. ولكن بداعي لزوم ستر النساء عن الأنظار فإن مثل هذا الصنيع منبوذ ومحرّم تحريماً صارماً ويجب على ساكن كل بيت أن لا يتجاوز سطح بيته. إلا أن الفضول دفعني إلى تخطّي هذه السنّة شيئاً ما. وبعد أن تأكدت من عدم وجود رقيب تسللت بكامل الحذر إلى حافة فناء يأتي منه بصيص خافت. . وانبطحت أرضاً وتطلّعت خلسة فرأيت مسلماً مستلقياً فوق أريكة عثمانية يدخّن

(1) سميلاسو، ص 386 ـ 387.

(2) سميلاسو، ص 359.

(3) سميلاسو، ص 375.

في فناء، وأمامه امرأتان أوشكتا أن تكونا عاريتي الصدر ترقصان حافيتي الأقدام في ضوء بعض مشاعل أغدقت على المشهد الأخّاذ إنارة ملائمة. وامتازت المرأتان بالحسن لا سيما وأنهما لم تفرطا في السمن. وكم أحببت إطالة النظر إليهما لولا أني تفطنت لوقع خطوات أنذرني بالخطر إن تماديت في الاستمتاع بهذه النعمة المحرّمة»[1].

وقد ظل الشرق يضن بأسراره على الأمير الرحالة وفي كل مرّة يختلس السمع أو يسترق النظر إلا وعاد بمشهد أو صوت عادي أو دون ما في مخيلته، لكنه سرعان ما يبادر إلى تجميل الموجود وإتمام الناقص بمخزونه الفانتزمي. وهكذا عندما ما منع من الإقامة بمدينة القيروان (لقداستها في المغرب) التهب خياله بهذا المنع الذي يضاهي تحريم النظر للنساء. فأصر على التعريج عليها في طريق العودة واختلس النظر إلى داخل الجامع الأكبر ويصف ذلك قائلاً: «... وافاني الحظ أن كانت أبواب المسجد الكبير مفتوحة، لما مررت أمامها على صهوة جوادي. وذلك بمناسبة أحد احتفالاتهم، ولا شك أن أحداً لم يتوقع أن يمر كافر في هذه الأثناء فيدنّس حرمته ببصره. وهكذا أتيح لي أن ألقي نظرة عبر السقيفة داخل قاعة الصلاة الشهيرة بأعمدتها الكثيرة، وأخرى إلى الصحن المحفوف بالأروقة... ولم تكن الظروف لتخوّل الوقوف للتمحص وإمعان النظر خشية أن يؤدي ذلك إلى مكروه ما»[2].

بدأ بوكلير موسكاو رحلته بأخيلة عن المكان، وسعى للتأكد منها ما أمكنه ذلك. فكان بناء على ذلك يرى ما يريد أن يرى، وما لم يره توقّعه. وزاد المنع الديني أو السياسي في ترسيخ قناعته فلم يعدّل فكرة مسبقة واحدة. فالمكشوف يفهم على ضوء المقولات والمستور يستر ما هو معروف بالسماع، وطالما إن الشرقيين يسترون فلا بد أن هناك شيء يستر.

(1) سميلاسو، ص 327.
(2) سميلاسو، ص 325.

## طبيعة الشرقي بين الوضوح والغموض

إذا كانت نظرة الأمير للمكان بمختلف عناصره واضحة رغم غرقها في الصور الجاهزة، فإن موقفه من الإنسان الشرقي غير واضح. فهو يتأرجح بين الدهشة والإعجاب الصريح وبين الاستهجان والاحتقار المُعْلن. فالشرقي يجب أن يكون، كشرقي، متمايزاً بصفات وسجايا تتطابق مع الصورة المرسومة في مخيّلة الغربي (القسوة، الخمول، الميل للملاذ، المكر، الاندفاع...). ولكن، من ناحية أخرى، تصدر منه مواقف لا يمكن أن ينكر سُمُوَّها إلا مكابر. لذلك يتميّز حكم بوكلير على الإنسان الشرقي في تونس بكثير من التناقض بين الإدانة والإشادة والإعجاب إلى حد الدعوة لتقليده والتنديد إلى حد المطالبة باحتلال بلاده بغية «ترقيته».

يميّز بوكلير بوضوح بين المكوّنات الإثنية للشرقي بتونس ويدرك خصائص كل مجموعة. «هناك الأتراك والأندلسيون والزنج والبدو والبربر والعرب»[1]. وهو يجتهد لتفسير الفروق بين هذه المجموعات العرقية المتباينة، فيعلل ذلك بتأثّر البعض بحضارات غازية أكثر من غيرهم أو برضوخهم لسلطة مركزية. لكنه سرعان ما يستدرك ويعود إلى الصور الجاهزة فيقول: «وكلّهم يشكّلون خليطاً كبيراً ألفيت كل طرف من أطرافه يجري وراء مصالحه الخاصة دون الالتفات إلى المصلحة العامة أو السعي ولو قليلاً إلى الرقي والتقدم الحضاري». وفي بعض المواضع يطيل الأمير في مدح البدو حتى تتوقع أنه سيلقي ثياب الأوروبي لينضم إليهم، لكنه سرعان ما يذمهم إما لقذارتهم وإما لعقليتهم الخرافية وإما لهمجيتهم. يقول: «... يمتاز البدو على البربر المتوحشين بلين العريكة والصبر والتجلد والبسالة وإكرام الضيف والأنس وحسن المجالسة ونظم الأشعار والاندفاع العاطفي والتحمّس. وهي كلها خصال تجعلنا نعتقد أنه لا يوجد شعب آخر مؤهل مثلهم لاستيعاب الحضارة ومواكبتها. وليس مستبعداً أن تكون الحضارة في انتظارهم في

(1) سميلاسو، ص ص 105 ـ 106.

المستقبل القريب لترتقي بهم ثانية إلى ذلك المستوى الذي بلغه إخوانهم مسلمو إسبانيا والذي لم تصل إليه أية أمة أوروبية أخرى». ويقول واصفاً إقامته في مضارب البدو: «كان لظهور القايد وهو مقبل نحونا وقع المفاجأة في نفوسنا لشدة ما انبهرنا ببهاء طلعته وحسن قوامه. لقد خلته نموذجاً من أروع النماذج البشرية التي خلّدتها ريشة الفنان «رفائيل». كانت محاسنه تضفي شعاعاً كشعاع هالة القديسين على هذا الرجل الذي يوحي برُسُل الإنجيل.... استرعى انتباهي وسط الحاضرين صبي في الثالثة عشرة من عمره يمتاز هو أيضاً بفائق الجمال وعرفت فوراً أنه ابن القايد لفرط الشبه بينهما. دنا الصبي الشبيه بيوحنّا في طفولته والتف حولنا عدد من أعراب المكان وكلّهم يمتازون بوجوه معبّرة للغاية تؤهلهم لأن يقوموا مقام أصحاب المسيح... لقد قضّيت تلك الأمسية وكأني في عالم أنبياء التوراة»(1). يبدو أن لسان الأمير (أو قلمه) قد غلبه فأفلت منه، فصرح بإعجابه بالبدو لكن باعتبارهم امتداداً للتراث التوراتي المسيحي لا باعتبارهم هويات عربية شرقية قائمة الذات. ومهما كان إعجابه العاطفي فإنه سرعان ما يغرق وسط سطور ذمه الموضوعي للأهالي. فيختفي التمايز بين العرب والبربر والترك والأندلسيين والزنج والبدو والحضر، ليظهر الشرقي المسلم كنموذج واحد تلتقي فيه العيوب والرذائل. فالشرقي:

* متناقض «كان الآمر التركي عسكرياً عظيم البنية جميل المحيّا، بدا لنا هندامه رثّاً حقيراً... ورغم ما يتقاضاه من جراية زهيدة وما كان يبدو عليه من خصاصة واحتياج، فإن سلوكه ظل دوماً يتّسم بالعزة والأنفة»(2).
* همجي تأصّلت القسوة في نفسه(3).
* الكسل والخمول فطري فيه(4).
* جبان رغم القسوة المتأصلة فيه، وقد وصف الأمير حادثة عاشها بنفسه

(1) سميلاسو، ص ص 33 ـ 338.
(2) سميلاسو، ص 31.
(3) سميلاسو، ص 30 و94.
(4) سميلاسو، ص 34 و176.

ولمس ذلك بنفسه[1].

* يحبّ المال وجشع[2].
* استعداده للتضحية بالغالي والنفيس للحصول على البارود[3] وذلك لاستعداده الدائم للتمرد ورفضه للرضوخ[4].
* قذرون إلى درجة حكم معها بوكلير بأنهم من أميرهم إلى حقيرهم يمتلكون قدرة على تحمّل القذارة والنتونة[5].
* يفضّل شرب الماء المعكّر والمتغيّر الطعم[6].
* يحب الموسيقى الصاخبة التي قيل له إنها تسقط لهول وقعها الأزهار من سيقانها[7].

ويخلص الأمير إلى أن كل هذه العيوب تتنافر كل التنافر مع واقع الأرض الخصبة، وكأنه يمهد بذلك لما سيؤكده صراحةً من ضرورة نقل ملكية البلد لمن هو أهل له. يقول: «.. وهكذا نرى جلياً أن الطبيعة أغدقت على هذا القطر كل ما يعود على الإنسان بالنفع ويوفّر له أسباب الرخاء. ولكنها بخلت عليه بأهم شيء وأفضله وهو الإنسان نفسه؛ لأن سكانه الحاليين ما زالوا بعيدين كل البعد عن المستوى الطيب الذي نجد عليه خيرات القطر عامة»[8]. وهكذا يختفي البدو الذين شبههم بأنبياء التوراة وراء أنموذج الشرقي المتخلّف الذي حلّ بأرض لا يستحقها ولا يمت لها بصلة.

في موضع لاحق يحاول الأمير الرحالة أن يفسر كل ما لم يعجبه في

(1) سميلاسو، ص 355.
(2) سميلاسو، ص 395.
(3) سميلاسو، ص 31.
(4) سميلاسو، ص ص 30 ـ 33.
(5) سميلاسو، ص 133.
(6) سميلاسو، ص 331.
(7) سميلاسو، ص 70.
(8) سميلاسو، ص 75.

الشرقي بعنصر أساسي في «الشرق» ألا وهو الدين الإسلامي. وفي هذا المجال لا يبدو على الأمير أي تناقض كما كان الحال خلال حكمه على طبيعة الإنسان الشرقي. فلا يداني وضوح وتناسق موقفه من الإسلام إلا جهله بهذا الدين وإصراره على تكديس المعلومات الشائعة والمنتشرة في الغرب. ولقد أخذ الأمير معلوماته عن الإسلام من مصدر يعتبره وثيقاً ألا وهو مردخاي نوح[1]. وبدل أن يتبادر إلى ذهنه بعض النقد، خاصة بعد أن أتيحت له فرصة مشاهدة مسلمين عن كثب، أصبح ينظر لكل الشرق على ضوء عدسات مردخاي نوح المشوّهة. يقول معرّفاً القارئ الأوروبي بالإسلام: «. . . لا شك أن دين هذه الشعوب هو أبرز العناصر التي تسيطر على حياتهم العائلية والسياسية. ودينهم فسيفساء غريبة وعجيبة جمعت سالفاً شمل هذه الشعوب. . . ولقد نشأ هذا الدين الغريب الأطوار في موطن يعتبر في حد ذاته أعجوبة خارقة، فلا غرو أن يلد موطن كهذا ديانة ليست في واقع الحال سوى خليط عشوائي من الشكليات والتقاليد»[2]. ولا يحمّل الأمير نفسه تخصيص صفحة أو حتى فقرة لإبلاغ القارئ الأوروبي بأركان هذا الدين العجيب الغريب، بل يكتفي بالإشارة بين الحين والآخر إلى بعض آثار هذا الدين في الحياة الشرقية. فدينهم يجعلهم يمنعون غير المسلمين من زيارة مساجدهم[3] ومشاهدة جنائزهم[4] والتطلع إلى نسائهم، ويسمح للأولياء الصالحين بالسير

(1) يعرّف مترجم ومحقق الكتاب مردخاي نوح كالتالي: مردخاي نوح (1785 ـ 1851) وصل تونس في ديسمبر 1814 بمهام قنصل الولايات المتحدة الأمريكية. أنهيت مهامه في جويلية (تموز/يوليو) 1815 بعد تراجع حكومته بسبب أصله اليهودي. عاد إلى أمريكا فاشتغل بالصحافة بالخصوص. ترك بعض الأعمال المسرحية، منها حصار طرابلس ويوسف كارمل. وقد استقطب هذا الرجل الاهتمام سنة 1825 بعرضه مشروع «أرارات مدينة اللجوء» الذي دعا فيه إلى إنشاء مستعمرة يهودية في جزيرة Grand Island الواقعة في نهر نياغارا.

(2) سميلاسو، ص 104.

(3) سميلاسو، ص 175.

(4) سميلاسو، ص 161.

عراة في الشوارع[1]. كما أن الدين هو سبب الاستبداد السياسي السائد[2]. ومع كل ذلك فإن الشرقي ضعيف الإيمان بدينه هذا، يتحايل وينافق ويخالف سرّاً وجهراً: «لا بد لنا أن نعترف أن الأهالي صاروا منذ زمن طويل يتقاعسون أكثر فأكثر عن أداء فرائضهم المعهودة. فبالرغم من وضوئهم المتتالي نجدهم أقذر من اليهود. وكلّما توفّر لديهم الخمر والنبيذ أدمنوا الشرب. وهم إن صاموا رمضان فإنهم يستعيضون ليلاً بأضعاف ما يحرمون منه نهاراً»[3]. ومع أن الأمير يعترف بأن الأوروبيين هم الذين عمموا استعمال الخمر في تونس[4] فإنه يعرض على سبيل الإثارة الحادثة التالية التي ظن أنها تصوّر ضعف عقيدة الشرقي ونفاقه، في حين أنها تصوّر عقليته الغربية في نظرته للشرقي. يقول: «. . . أقبل القايد صحبة سائر أهل الدُوّار (العشيرة) واتخذوا لهم مجلساً أمام خيمتي وانبرى يتلذذ بما يقدمه له أتباعي بطلب منه من غليون وقهوة وفي آخر المطاف خمس أو ست قوارير من النبيذ الفرنسي، كلها من زادي الخاص. وكان بين الجمع «طالب» (علم) لا تفارق المسبحة يده، فامتنع في البداية عن تذوق النبيذ المحرّم ثم انصاع وشرب، رغم ضحك الجماعة ومزاحهم، كما لم يشرب أحد مثله حتى صار أحمر مثل السرطان. ورأيته من حين لآخر يجتهد في ستر سبحته في ثنايا برنسه عسى ألا يتفطّن [الرسول] محمد إلى صنيعه. . . وقد وجدت شابين وسيمين شوههما زهريّ حادّ. وهو داء يفتك إلى أقصى حدّ بهؤلاء القوم المساكين الذين يجهلون عواقبه الوخيمة. وهم لا يستعملون ضد هذا المرض إلا أسخف أنواع الأدوية التي يصفها لهم دجّالوهم، وتتكون عادة من وريقات مكتوبة وتمائم يضعونها على موضع الداء وأحياناً في طيّات ثيابهم. وهم نادراً ما يقتنعون بضرورة التماس معونة طبيب نصراني من تونس، لا لأنهم متعصبون دينياً، بل لأنهم بخلاء.

---

(1) سميلاسو، ص 74.

(2) سميلاسو، ص 105.

(3) سميلاسو، ص 391.

(4) سميلاسو، ص 104.

ونراهم يقبلون من كل من مرّ بهم من المسيحيين أو اليهود المسافرين وبدون تردد أي دواء، بل يلحّون في الحصول عليه»[1].

وكنتيجة لجهل الأمير بالإسلام كعقيدة، فإنه خلط بين الدين والعادات وخاصة تلك التي تتعلّق بالتطيّر رغم اعترافه بأن البعض منها معروف في أوروبا بل إنه هو ذاته يتأثر بها. لكن التطير في أوروبا يبدو طريفاً ومقبولاً وهو في الشرق دليل تخلّف. فقد استغرب من تطيّر أهل تونس من إتمام البناء الذي شرع فيه الغير ومات قبل إنجازه[2]. وباختصار كان الأمير خلال إقامته في تونس ومن ناحية الانسجام العقلي والتفاهم الفكري غريباً كصالح في ثمود. وقد صوّر ذلك في فقرة معبّرة قال: «تقابل الأحداث والأوضاع الأوروبية التي تشغل بالنا وتشد اهتمامنا في هذه البقاع بلا مبالاة تكاد تكون مخزية. عمدت مرّة إلى شد اهتمام مضيّفي (وهو أوروبي) بحدث وفاة إمبراطور النمسا، فإذا بالسيدات ـ يا لخيبتي ـ يجهلن كل شيء عن هذا العاهل. وفي المساء سألني أحدهم عن صحة خبر موت نابليون بجزيرة سانت هيلين. إن اهتمامهم بأزمات السياسة الأوروبية لا يفوق اهتمامهم بتطور ثقافة القردة في جزيرة «جاوا» أو نجاح حركة التبشير المسيحية بجزر «تاهيتي»[3]. فإذا كانت هذه عقلية الأوروبي المقيم في تونس فما بالك بالتونسي ذاته؟ لذلك لم يكلّف الأمير نفسه عناء محادثة التونسيين واعتبر أن ما يعرفه عنهم كاف. ولم يحاول الخروج من مركزيته بطرح اعتراض على نفسه: «ولماذا تود سموّك أن تكون شواغلك واهتماماتك هي شواغل كل البشر مهما كانوا؟ وأينما كانوا؟»

لكن، ومن باب الإنصاف، ألم يعجب الأمير بأية سجية أو عادة في الشرق؟ أعجب بوكلير ببعض العادات بل عبّر عن أمله في نقلها إلى أوروبا لتعوض تلك التي كان قد انتقدها في كتابه توتي فروتي. من ذلك قوله: «لقيت عند المسلمين عادات منها ما هو جدير بأن نحتذي به. أذكر من ذلك

(1) سميلاسو، ص 360 و385.
(2) سميلاسو، ص 62 و70.
(3) سميلاسو، 50.

بالخصوص طريقتهم في تأدية التحية. وهي تقتصر على إحناء الرأس مع وضع الكف الأيمن على الصدر يساراً. وتمتاز هذه التحية بالوقار والرشاقة ودلائل المودة، في حين أن تحيتنا برفع القبّعة تعد من أوحش وأبشع ما لأوروبا المتحضّرة من تقاليد»[1]. كما يعبّر عن إعجابه بطريقة الأهالي في ارتداء الثياب الملوّنة في حين يمتاز اللباس الأوروبي بالرتابة والنمطية، لكنه سرعان ما يتراجع ليعتبر أن ولع الشرقي بالألوان يخفي: «نفحة صبيانية ويقع في وضع هزلي مضحك. حين نرى شيخاً وقوراً توشّيه لحية بيضاء جالساً في دكّانه وكأنه تنكّر فلبس قوس قزح. أو ترى محارباً شديد السمرة مدججاً بالسلاح يتهادى في الطريق رافلاً في زي يجمع بين الوردي الناعم والخضر التفاحي والأصفر الذهبي»[2]. فإذا تركنا هذا الجانب الفولكلوري جانباً، فقد لفت بال الأمير رغم استنكاره غلظة وخمول وكسل وقسوة... الشرقي جو السوق. يقول: «من ظواهر السوق التي تكسب سكّان البلاد شرفاً كبيراً وتذهل الأوروبي وتدهشه، منظر حمّال بسيط يشقّ طريقه عبر الحشود المتراصة (لعله الدلال لكنه لم يعرف ذلك) وهو يشهر بصوت جهير مصوغات حملها على ذراعيه وكتفيه، تتجاوز قيمتها أحياناً ثلاثين أو أربعين ريالاً. ولا ضمان له ولا وقاية سوى أمانة القوم المكتظين حوله كالنمل. وبالمثل فإن بضاعة التاجر معروضة أمام الدكاكين دون خشية أو مكروه. ويتحلّى الباعة بآداب لا تقلّ حسناً عن آداب أصحاب المتاجر في أوطاننا»[3]. وبما أن هذه الظاهرة ليست مشهورة وبالتالي غير متوقعة لدى الشرقي، فإن الرحّالة اكتفى بنقله وتسجيل إعجابه دون أن يبحث عن الخلفية العقدية أو الاجتماعية، ولم يعللها كما علل الرذائل بفساد الطبع أو الأصول الدينية. وبقي الحكم على الإنسان الشرقي سلبياً في عمومه تمهيداً لبيت القصيد وهو كما أبرزه الأمير نفسه بقوله: «... أما الآن، وأنا أقترب من نهاية الرسالة، لو طُلِب مني أن أبدي رأيي فيهم كخلاصة، فإني أقول: إنهم يتحلّون أكثر منّا في مظهرهم وسلوكهم

(1) سميلاسو، ص 155.
(2) سميلاسو، ص 154 ـ 155.
(3) سميلاسو، ص 174.

بهيبة الإنسان الفطرية ويفوقوننا من حيث السجايا البدائية، لكنهم لظروف معينة ظلّوا جاثمين عند أول درجة من سُلّم الحضارة. كذلك بالنسبة لغرائزهم الطبيعية التي لا يتورّعون عن إشباعها بفظاظة بل قُلْ بوحشية رغم رقّة شمائلهم. . . . لم تعد لهم أية صلة بمسلمي إسبانيا بل أصبحوا جنساً متنكساً قاصراً عن تحقيق أي نوع من النهضة أو عن بعث أي ضرب من ضروب الحضارة. ولا سبيل لحضارة إليهم إلا إذا أخضعوا لهيمنة المسيحيين»[1].

## عمران الشرق ومؤسساته

يصف الأمير سوقاً بمدينة تونس فيقول: «لقد كانت الأسواق تعجّ بالبضاعة على مختلف أنواعها، ولكن دون ما سجّلته بأسواق الجزائر كمّاً. وتوفرت بالخصوص منتجات الصناعة المحلّية. وينحصر أهمها في مقطّرات الورد والياسمين العطرة التي اشتهرت بها تونس، والبرانيس الصوفية البيضاء الجيّدة، ولوازم الفروسية الممتازة جداً، ثم الشيلان الاعتيادية والمنسوجات الحريرية المطعّمة بالذهب. واشتملت المعروضات على بضاعة عجيبة قد يكون بعضها من مخلّفات غنائم أوروبية المصدر وقعت في أيدي القراصنة سابقاً. فقد اكتشفت من بينها أوعية للحساء وأقداح كالتي تستعمل في الكنائس وثريّات وعلب لرش السكّر. . .»[2]. نجد في وصف الأمير هذا، عرضاً غير مقصود لوضع تونس في بداية مرحلة تحوّل يصح نعتها دون مبالغة بالتاريخية. فقد كانت أسواق البلاد تعكس وضعها العمراني والاقتصادي عندما غادرت مرحلة الفقر مع الاكتفاء الذاتي للدخول في مرحلة التخلّف والتبعية. فقد كانت تونس إلى حدود العشرية الأولى من القرن التاسع عشر مكتفية ذاتياً فلاحياً وصناعياً، تصدّر الثروات الزراعية وبعض المواد الأولية والمعادن، مما يدرّ عليها نقداً ذهبياً يمكّنها من استيراد ما ينقصها ويحصّنها سياسياً من التدخّل الخارجي. وبعد مؤتمر فيينا (1815) وتأسيس نظام عالمي جديد،

(1) سميلاسو، ص 412 ـ 413.

(2) سميلاسو، ص 69 ـ 70.

انطلق رأس المال الأوروبي (وخاصة الفرنسي) غازياً الأسواق «الشرقية» واخترقها مكرّساً بذلك تبعية متفاقمة وتخلّفاً متصاعداً[1]. لكن بوكلير لم يرَ في وضع السوق التونسي ما يشير إلى اختراق اقتصاد قوي لبلد لا يملك من الإمكانات ما يسمح له بالصمود. ولقد دخل فيما بعد إلى قصر الباي ولاحظ تفشي العادات الاستهلاكية لدى الطبقة الموسرة (أثاث، أواني، طبخ، مشروبات، مثلّجات، حلويات. .) لكنه ومن منطلق مركزيته الغربية وهاجس القرصنة لم يرَ في المعروضات الأوروبية سوى ثمرات سلب ونهب افتراضيين. وفي كل مراحل الرحلة، لاحقاً، لم ينفك الأمير يجمع الانتقاد وراء الآخر حول كل مظاهر التخلّف العمراني والحضاري. فاشتكى مرّ الشكوى من قبح منظر وسائل الإنارة (الشموع والأسرجة) ونتونة رائحتها وضعف نورها، وسخر من تجهيزات الحلاقين القذرة التي تشبه مناجل العشب[2]. ووصف الكتاتيب في تعال وازدراء قائلاً: «. . . المدارس مفتوحة الأبواب على الشارع تلوح لك من خلالها أكوام متراكمة متشابكة من الصبية يرسلون صياحاً مسترسلاً، وتلك هي طريقتهم في التعليم»[3]. وقد وصف أكثر من مرّة نظرات الشرقيين له وهو بصدد تدوين ملاحظات فلم يستنتج سوى أنه: «في طباع المسلمين عدم اكتراثهم بهذه الأمور وجهلهم بها»[4]. ورغم شدّة إعجابه ببساطة الإدارة التونسية وتمنيه أن تحتذي أوروبا بذلك ابتعاداً عن البيروقراطية[5]، لا يتمالك نفسه من السخرية من الشرق لتسلية القارئ الأوروبي. يقول واصفاً لقاءه مع جوزيف رافو (الوزير): «. . . استرعى

(1) Mahjoub Azzam. Analyse historique du sous développement en Tunisie. Annale de l'Afrique du nord. 1979.

(2) سميلاسو، ص 34.

(3) سميلاسو، ص 42.

(4) سميلاسو، ص 419.

(5) يقول في وصف موظفي الدولة: ليست تحت تصرفهم هياكل إدارية أو دواوين بل يقومون بكافة الإجراءات والأعمال بأنفسهم. وهي لعمري بساطة حبّذا لو يقتدى بها في أوروبا حيث تسود جيوش الموظفين، ص 44.

انتباهي في أحد أركان الغرفة خزانة تعد ثلاثة عشر درجاً فقط، لم تختلف في نظري عن تلك الرفوف التي تستعملها موزعات مواد التغذية في بلادنا لحفظ السكر والزبيب والأرز وغيرها من المواد. غير أن هذه الخزانة تكتسي أهمية قصوى فهي في الواقع أرشيف الدولة بعينه. ولا غرو ألا تحتل هذه المنشأة إلا مساحة ضئيلة في هذا القطر الذي ما زالت بدعة الكتابة النافعة تتعثّر فيه في خطواتها الأولى»[1].

لم ينكر الأمير وجود مظاهر إيجابيات في العمران الشرقي، لكنه يعدّل ذلك في كل مرة إما بالسخرية أو بإيراد مظهر سلبي محاذ. فعندما زار ميناء حلق الوادي وحوض بناء السفن، لاحظ تغلّب الطابع والنظام الأوروبي لكنه سرعان ما سخر من بدائية التحصينات والدفاعات[2]. وعندما زار ثكنة حديثة بالعاصمة وأثنى على نظافتها وحسن تنسيقها، كان قد أسهب في صفحات سابقة في وصف الثكنة القديمة وتداعيها ونتونة روائحها وقذارتها، ولم يقصّر في رسم لوحة ساخرة متعالية للعسكر الذين كانوا يدخنون إلى جانب برميل البارود[3]. وعندما زار المهدية أبدى اندهاشه من عبقرية الابتكار في الري، يقول: «مما زاد في تعجّبي هو أني رأيت في تجهيزات الري رغم طابعها البدائي الساذج الذي ينم عن حضارة لم تتجاوز عهد الصبا، وسيلة ري تفوق الطريقة الشائعة عندنا من حيث عبقرية الابتكار والبساطة... بهذه الطريقة يستطيع شخص واحد أن يسقي حديقة خضراوات في وقت قصير جداً. ويتم نفس العمل عندنا باستعمال الرش ويتطلّب تشغيل ما لا يقل اثني عشر شخصاً تشغيلاً شاقاً لمدة ساعات عديدة»[4]. وكما هو الحال في النواحي الإيجابية التي شاهدها فإن الأمير لم يستخلص شيئاً عن الإنسان الواقف وراء هذا الإنجاز «التقني». وهكذا لا يرسب في ذهن القارئ الأوروبي (وغير

(1) سميلاسو، ص 91.
(2) سميلاسو، ص 150.
(3) سميلاسو، ص 163 ـ 165.
(4) سميلاسو، ص 302 ـ 303.

الأوروبي) غير الملامح المظلمة عن الحالة الحضرية العمرانية للبلد، بحيث يجد الغرب ما في مخيّلته عن الشرق، ويبدو مشروع تمدين هذا الجزء من العالم ضرورة بل واجباً أخلاقياً.

لا يكون الشرق شرقاً إلا ببلاط شرقي فخم وبحاكم مستبد يأمر بقطع الرؤوس بإشارة من إصبعه وبإيعاز من جارية مختفية وراء الستار. بهذه الصورة الكاريكاتورية عن المؤسسة السياسية واجه الأمير الباي، فوجد بعض ما كان يتوقّع عن البذخ والترف والاستبداد وأكمل الباقي من مخيّلته أو من روايات القناصل وزوجاتهم (كما فعل في قضية المرأة والحريم).

فمما وجده مقارباً لما توقّعه جو الأبهة والتشريفات التي يتطلّع إليها هواة قصص ألف ليلة وليلة، فأسهب في وصف موكب الباي في طريقه إلى مجلس الحكم[1] مضفياً على ذلك مسحة مسرحية شرقية. كما وصف مجلسه والأثاث واللباس والتقاليد البروتوكولية[2]، وأسهب في تفاصيل العنف الدموي كما نقله له بعض أصدقائه من القناصل[3] وكل ما من شأنه أن يروي تعطّش القارئ الغربي. وعندما توغّل في داخل البلاد وصادف أكثر من ممثل من ممثلي الباي لاحظ عليهم مخايل المهابة «الشرقية» يقول: «استقبلت في مدينة الكاف بحفاوة لم أشهد مثلها من قبل. وكان الوالي، مثلما هو الشأن في القيروان، يتقلّد أهم الرتب العسكرية والمدنية في نفس الوقت مما يجعل منه سيد المكان على الإطلاق تقريباً. وكان أيضاً عظيم البنية مهيب الطلعة. وكأني بالباي لا ينتدب ولاته إلا من بين مَنْ هم طوال القامة»[4]. وتعدّل هذه الشهادة المقاربة لصورة الحاكم الشرقي، حكماً صارماً قاسياً كان قد أورده في أول الرحلة عندما وصف جنود الحامية بمدينة بنزرت بقوله: «اعترضنا أحد السرية المحلّية التي لا تعد أكثر من خمسين نفراً، جلهم من المعاقين في

(1) سميلاسو، ص 178 ـ 179.
(2) سميلاسو، ص 96.
(3) سميلاسو، ص 100.
(4) سميلاسو، ص 389.

هيئة يرثى لها. وكدت أحسب هذا الضابط شحّاذاً عجوزاً، لولا أن السيد كوستا (نائب القنصل) أحاطني علماً بمقامه الرفيع. وهناك خمسة من هؤلاء الضباط يخضع لكل منهم عشرة جنود... ولا يرتدي هؤلاء الجنود الهزليون الجديرون بإحدى كوميديات شكسبير، أزياء نظامية بل يلبسون أشتاتاً من الأطمار البالية الممزقة ويحملون شتى أنواع السلاح. فمنهم من تقلّد سيفاً معقوفاً ومنهم من حمل بندقية بالغة الطول لا صوّانة فيها ومنهم من اكتفى بوضع عصا على كتفه. وهكذا تراهم يعرجون ويهيمون ويتسكّعون عبر أرجاء المدينة وعلى وجوههم مسحة من الهيبة والأبهة وأرجلهم عارية، يتقدّمهم الآغا الذي لا يتميّز عنهم بهندامه البالي. أليس من المدهش أن يكون الأمن مستتباً هنا رغم ضعف الحامية ووضعها المضحك؟ فبوسع أي إنسان أن يتنقّل أينما شاء وجيوبه مليئة ذهباً دون أن يخشى أي اعتداء»[1]. في هذه اللوحة التي تفنن الأمير في رسم تفاصيلها بشكل كاريكاتوري ملحوظ يصطدم ما في المخيلة مع ما هو في الواقع، ولكن يبقى المجال مفتوحاً لسحر الشرق وطرافته وغرابته. في المخيلة أبهة السلطة وممثليها وفي الواقع الوضع المزري للحامية التونسية، لكن ذلك ليس من شأنه التخلّي عن الحلم. فالعسكر على وضعه ذاك له من الهيبة والأبهة ما يمكنه من نشر الأمن، وهكذا لا تقضي الصدمة بالواقع على البعد الخرافي في الشرق بل ترسي خرافة جديدة: الشرق بلد يمكن أن يضبط الأمن فيه شحاذ.

في قضية الحرية والاستبداد لم يصطدم الأمير بواقع مغاير لما كان يتوقّع، بل إن تونس «لم تخيّب ظنه» في ذلك. صحيح أن حسين باي أعطاه انطباعاً غير متوقع من ملك شرقي إذ: «.. كان على قدر وافر من البشاشة والأدب واللباقة التي ترتاح لها النفوس... وعند الوداع صافحنا أنا وكاتبي يد العاهل المسلم السّمح بفائق الاحترام، وفارقناه مسرورين أشدّ السرور بالحفاوة التي خصّنا بها»[2]. لكن هذا العاهل الشرقي السمح لم يكن لبقاً

(1) سميلاسو، ص 44 ـ 45.

(2) سميلاسو، ص 97 ـ 98.

ومهذّباً إلا مع ضيوف أوروبيين أجانب، لذلك كان الجانب الأوفر من حديث الأمير عن السلطة والمؤسسة السياسية متعلقاً بالاستبداد الشرقي الشهير. يصف ما شاهده في أحد القصور فيقول: «تبوّأت أعلى البطاح عشرة مدافع معدنية صغيرة. ولم نتمالك عن الضحك لما قرأنا على أربعة منها عبارة «مساواة وحرية». وهو لعمري شعار أضحى اليوم في أوروبا نفسها يبعث على الاستهزاء، فما بالك في هذا المكان؟»[1]. لم يكن الأمير قد جرّب أو رأى بنفسه شيئاً من مظاهر الاستبداد، لكنه كان مزوّداً بتصورات دعّمتها قراءاته لكتاب مردخاي نوح ثم روايات مضيفيه من القناصل. ولقد ذرع أغلب مناطق بلاد البربر (تونس) ولم ينقل حادثة واحدة عاينها بنفسه سوى حادثة الحمّام. يقول: «لا يخلو أسلوب الحكم هنا، والحق يقال، من شيء من التعسّف ومن شأن النادرة التالية أن تدعّم ذلك. لا توجد في هذه البلاد، وأظن في كامل العالم الإسلامي سوى الحمامات العمومية، أما الحمامات الخاصة فهي مفقودة تماماً. وعلى من أراد استعمال الحمام لوحده أن يحجزه قبل موعد الاستحمام بكثير وأن يدفع خمسة أضعاف معلومه. وعند وصولي إلى الكاف شعرت بأني بحاجة إلى الاستحمام، وفي السادسة، وهو عادةً الوقت الذي يستحم فيه الأهالي بعثت إلى الوالي أطلب منه أن يدلّني على أحسن حمّام وأن يخبرني إن كان ذلك في ذلك اليوم بالذات ممكناً أن أستعمل الحمّام لوحدي. وما هي إلا دقائق قليلة حتى جاءني ردّه بأن الحمام سيكون جاهزاً حالما آمر بذلك. وقد أجبر المستحمّون في ظرف وقت قصير على الالتفاف ببرانيسهم ومغادرة الحمّام بقطع النظر عن حالة العرق التي كانت عليها أجسامهم»[2].

لا يحاول الأمير تحليل الاستبداد الشرقي، مكتفياً بالإشارة إلى أن يستمد بعض أسبابه من ديانة الشرق وموحياً إلى أنه من «طبيعة الشرقيين». وتتعاقب الأحكام الباترة والنهائية حول الاستبداد السياسي رغم اعترافه دون

(1) سميلاسو، ص 64.

(2) سميلاسو، ص 390 ـ 391.

إحساس بالتناقض بأن «رجال البلاط (التونسي) ليسوا دون الأوروبيين كفاءة في التمثيل وشطارة وكياسة»[1]. فعندما صادف لاجئين سياسيين من دولة نابولي في شمال البلاد لم يحمل ذلك إلا على استبداد السلطة وجهلها يقول: «يقيم هنا «كاربوناريون» من نابولي، التجأوا سابقاً إلى السواحل حيث لا تكترث كثيراً بآراء الأشخاص بل تجابه على الفور أدنى تعنّت بوسيلة الجلد الناجعة أو بقطع الرأس»[2]. وعندما يستفيض بوكلير موسكاو في تفاصيل الاستبداد الشرقي وخاصة في تسلّطه على أعوان المستبد وأقاربه لا يحاول المقارنة مع ما كانت الحياة السياسية المستبدة في أوروبا، بل سرعان ما يبادر إلى الحكم على خصوصيات القطر وطباع أهله. يقول ناقلاً تفاصيل حادثة واقعية: «... من طرائف الأحداث السابقة الذكر (مقتل عثمان باي وكل أسرته بتدبير من ابن عمّه وخليفته محمود باي) أن امرأة من زوجات عثمان باي وضعت مولوداً غداة مصرعه. فتُرِك على قيد الحياة وهو يعيش إلى حد الآن سجيناً في باردو، ولا يعوزه شيء إلا الحريّة. ويشاركه محبسه شيخ طاعن في السن، من أقرباء علي باشا، امتحن في شبابه بما امتحن به رفيقه. وبوسعنا أن نتصور أنه يدور بين هذين الشخصين حوار يكتسي صبغة شاعرية مثيرة للغاية... ظل هذا القطر، كما رأينا، وعلى امتداد ألف سنة مسرحاً فظيعاً لثورات وجرائم مطّردة، لا بد أنها خلّفت في طباع هذا الشعب آثاراً سيئة من شأنها أن تطمس فيه مشاعر الشرف ومفاهيم الولاء والإخلاص. سيما أن هذه الأحداث أدت إلى إرساء نظام قار من الطغيان الجامح والاستبداد الغاشم»[3].

وفي موضعين اثنين يبدي الأمير إعجاباً بالمؤسسات الشرقية ويطالب بالنسج على منوالها، كل ذلك دون أن يشعر بأدنى تناقض مع ما سلف وأورده، بل يغرق انطباعاته في نقد الأوضاع الأوروبية كما فعل في توتي

(1) سميلاسو، ص 413.
(2) سميلاسو، ص 51.
(3) سميلاسو، ص 88.

فروتي. المناسبة الأولى كانت عندما تعرّضه للسلطة إذ يقول: «إن الذي تلقي به الأقدار في طريق السلطة في هذه البلاد يتعرض للمحق فوراً. أما في أوطاننا فإن ذلك يحدث رويداً وبصفة غير مباشرة ولكن بنفس الحتمية... غير أني أرى أن سواد القوم يتمتعون هنا بأكثر حريّة مما هو عليه الحال بأوروبا ولا يعانون مثل عامة الأوروبيين من مضايقات نظام حكومي يهيمن على كل القطاعات ويثقلها بالضرائب والأداءات. ولقد ألفنا هذه الأوضاع العفنة وتعودنا عليها، حتى صرنا لا نعي خطورتها، في حين أن شرقياً يزور أوروبا ويقيم بها أمداً طويلاً يجد الأوضاع فيها بالمقارنة مع أوضاع بلاده لا تطاق. ويعتبر نفسه رغم أنه من رعايا طاغية مستبد حرّاً طليقاً كالطير في الأجواء»[1]. أما المناسبة الثانية فهي تخصيصه ست صفحات لوصف النظام القضائي التونسي وإعجابه به وتمنيه أن يرى الإجراءات القضائية في بروسيا تسير على منواله، يقول في رسالته السابعة: «لقد نالت طريقة القضاء المعمول بها في هذه البلاد كل إعجابي. صحيح أن ما تتميز به هذه الطريقة من سذاجة وإيجاز وسرعة تنفيذ فضلاً عن قلّة عدد القوانين فيها (علماً بأن جميعها صادر عن القرآن والسنة زيادة على الاجتهادات المستمدة منهما) ليس كفيلاً بأن يتيح لكم، يا صديقي العزيز، تكريس علم غزير ووقت كبير في سبيل إنجاز شرح القضاء التونسي مثلما فعلتم بالنسبة لشرحكم الشهير لنظام القضاء البروسي. لكن الإنسان العادي الذي لا ينتمي مثلكم لعلماء القانون يجد ولا شك في هذه الطريقة نفعاً ملموساً لما تَضْمن له من سرعة في إصدار الأحكام ومجانية في الإجراءات، وهذا أمر أساسي في نظري... إن البحث عن الأسباب التي تجعل النظام الجنائي هنا بسيط ويفوق نظامنا نجاعة وفاعلية، موضوع جدير باهتمام كبار المفكرين. بالنظر لنتائجه من حيث نسبة الإجرام المتقلّصة في أوساط الشعب. ولربما أدى هذا البحث إلى التيقّن من أن استعمال اللين أو الصرامة في دور قضائنا هو استعمال غير محكم في غالب الأحيان. ولربما أدى أيضاً إلى التأكد من سلبية سجوننا. ولا فائدة في إعادة ما قيل في شأنها

(1) سميلاسو، ص 144 ـ 145.

من أنها مشاتل للرذيلة ومدارس عليا لتعليم الفساد. وأشنع ما في الأمر أن هذه المؤسسات صارت في عدة بقاع حقولاً مربحة للصفقات الاحتكارية وصار مُسَيّروها والحراس يسرقون المجرمين والدولة على حد سواء»[1]. فنحن نلاحظ أن النواحي الإيجابية التي لم يكن بإمكان الأرستقراطي الديمقراطي إنكارها والتي طالب بالاستفادة منها، لا تشكّل مناسبة لمراجعة مواقفه من الشرق وتخلّفه، بل مجرّد مناسبة لتحليل الأوضاع في أوروبا كما فعل في رسائل ميت وتوتي فروتي.

وما قيل عن موقف الأمير من المؤسسة السياسية في بلاد البربر القراصنة يصح عن موقفه من الأسرة. فقد عبّر الأمير عن حماس لا يفتر عن بنية الأسرة في الشرق، وانتهز كل مناسبة ليعبّر عن تمنياته بأن تُبْقي أوروبا على ما تبقى من تراث في هذا المجال. فعندما وصف إقامته بين البدو وقارنهم بأصحاب المسيح لم يتردد في الربط بين بنية الأسرة والتربية وما أعجب به فيهم من توازن الشخصية. يقول: «. . . احتشد قبالتي زهاء ستين من رجال العرب في مقدمتهم شيوخ القبيلة وأكابرها ثم الكهول ويليهم الأطفال. وكنت ترى من خين لآخر أحد الأطفال يترك مكانه ليستبدله بحجر أبيه فيبادران بتبادل الملاطفات على أرق الأوجه. والجدير بالذكر أن العلاقة بالوالدين ما زالت محافظة هنا على كامل سذاجتها الأصلية المحرّكة للنفوس. . . كان الجميع هنا ينصت بكل الانتباه لما كنت أسرد على مسامعهم (بواسطة الترجمان) من أحاديث حول أوروبا. وكانت تصدر عنهم تعاليق وأسئلة تستدعي مزيد التقدير والإعجاب لما تنم عنه من فطنة وكياسة وأدب فطري يمتاز به هؤلاء البدو الأميون. ناهيك أنهم كانوا شديدي الحرص على تفادي كل ما من شأنه أن يستنكره الإنسان وتكرهه نفسه. . . وقد سألت شيخ

(1) سميلاسو، ص ص 111 ـ 116. والرسالة موجّهة للمستشار غرافيل Maximilien Grävell وهو رجل قانون وحقوقي بروسي اشتهر بمؤلفاته في الحقوق والفلسفة. وقد أصدر بين 1825 و1831 كتاباً ضخماً حول القوانين والتشريعات والنظام القضائي في الدولة البروسية. وكان من أصدقاء بوكلير الذي استشاره مرات في قضايا تخص أملاكه.

القبيلة: هل يسمح لي بأخذ نجله معي إلى أوروبا ليقضي بضع سنوات في كفالتي. فما كان من الأب إلا أن استساغ المداعبة وأجاب: لِمَ لا؟ ولم يتردد الصبي نفسه فور أن أدرك قصدي على لسان أبيه في الإعراب عن رضاه مبتسماً دون تصنّع أو دلال. ولو وقع نفس الموقف عندنا، فإني أراهن بكل ثمينة أن مائة طفل وطفل لا يسعهم إلا أن يحسبوا الأمر جَدّاً، فيسرعون للاحتماء بآبائهم وهم يتلفّظون بـ «لا» ركيكة»[1]. ولا يتوقف التماسك العائلي على الأعراب والبدو بل يشمل أيضاً قمّة السلطة، يصف الأمير مجلس الباي فيقول: «كان ابن الباي الأكبر (سيدي أحمد باي) واقفاً على عتبة العرش يمين أبيه. وقد عكف هذا الأمير البالغ من العمر 26 عاماً على مساعدة أبيه في غاية الاحترام والتقدير. فكان تارة يناول والده نظّارته لقراءة عريضة وتارة يرفع إليه آنية فضّية للبصاق، هذا دون أن يخجل من القيام بهذه المهام الحقيرة أمام مجمع البلاط. وقد سبق لي أن أشدت بالاحترام والتقدير اللذين تقوم عليهما العلاقات بين الأبناء والآباء في هذا المجتمع»[2]. وكان رأي الأمير في مؤسسة الأسرة في بلاد المسلمين من أوضح ما طرحه من مواقف، لكن دون أن يحمّل نفسه عناء تحليلها وربطها ببقية الهيكل الاجتماعي - الثقافي للشرق، يقول: «... لئن أردنا أن نرتقي درجة أعلى فلا بد لنا من الإشادة بتلك الظاهرة الاجتماعية الرائجة، المتمثلة في معاملة الأبناء للآباء والشبان للشيوخ معاملة تقوم على بالغ الاحترام والخشوع. وتنجم عن هذا السلوك مواقف إنسانية مؤثّرة، صرنا يا للأسف نفتقدها في بلادنا يوماً بعد يوم»[3].

## أي مستقبل للشرق؟

لو أردنا القيام بدراسة إحصائية لحصر المفردات التي استعملها الأمير

(1) سميلاسو، ص 338 ـ 339.
(2) سميلاسو، ص 179 ـ 180.
(3) سميلاسو، ص 155.

لوصف ما لم يعجبه كغربي في بلد شرقي، وقارناها بالمفردات المتعلّقة بما جلب انتباهه وأعجبه، لرجحت الكفّة الأولى. لكن يمكن التعرف على حصيلة موقفه من خلال إبراز ما أورده صراحة من تصوّر لمستقبل هذا الجزء من الشرق: تونس. فعمل كل مستشرق (على عكس عالم الآثار) ليس دراسة علمية أكاديمية بقدر ما هو مشروع ضمني وصريح لمستقبل المجتمع المدروس. ففي حين لا يهدف عالم المِصْريّات، مثلاً، إلى إحياء المجتمع الفرعوني أو السيطرة من خلال معرفته على مصر اليوم، يسعى المستشرق أو الرحالة بشكل مباشر أو غير مباشر إلى تحويل معرفته إلى أداة سيطرة. ويبرز ذلك بشكل غاية في الوضوح مع بوكلير.

إذا كان الأمير يتناقض في مدحه ثم ذمه لبعض مظاهر الشرق، أو يتهافت في تحليله عندما يقارن بين ما يشاهده وبين ما يتمنى نقله إلى بلده أوروبا، فإنه واضح غاية الوضوح عندما «يرسم» مستقبل تونس بل مستقبل كل الجناح المغربي من الشرق. لم يتردد بوكلير القادم إلى تونس عبر الجزائر في التأسف على فرنسا التي كان من الأجدر بها احتلال تونس بدل الجزائر. يقول: «استتب بتونس عهد أرفق وأهون يجعلنا نأسف لفرنسا أن حادثة الصفعة الشهيرة التي سددت لقنصلها بالجزائر لم تحدث بتونس. فلو كان ذلك لأحرزت كسباً يفوق ما أحرزته باحتلالها الجزائر. إذ ما كان الاستعمار الفرنسي يجد في تونس أية عقبة تعترض سبيله وتعرقل مساره»[1]. ويقول في موضع آخر وبنفس الوضوح: «إذا نحن نظرنا إلى هذه الخصوبة الشاملة التي تتميز بها تربة هذه البلاد التي تبقي مساحات شاسعة منها جرداء مهملة أو غير مستغلة كما ينبغي فإننا لا نملك إلا أن نتساءل بكامل الدهشة كيف يمكن لمملكة تونس أن تصبح لو آلت إلى الأوروبيين من ذوي الخبرة والاجتهاد. إن في طاقة البلاد (التي لا تعد اليوم أكثر من مليونين ونصف) أن توفر العيش والنعمة لستة أضعاف هذا العدد دون منازع. ولا مجال هنا للمقارنة بالجزائر فمهما تطورت الأساليب والطرق لترسيخ الاستعمار، فإنه من المحال أن

(1) سميلاسو، ص 100 ـ 101.

تتحقق هناك النتائج الراقية التي من شأنها أن تحصل في تونس»[1].

يتنقّل الأمير في تونس «دولة القرصنة» وفي ذهنه بوصلة توجهه. وتتراجع الغاية السياحية أمام الهدف الاستكشافي الريادي الاستعماري. فتصبح كل ملحوظة ذات فائدة يمكن استغلالها للغزاة أو الإداريين أو المُعَمِّرين. وأول انطباع له كان، عندما وضع قدمه على الساحل الشمالي لتونس قادماً من ميناء عنّابة الجزائري، كان مفيداً لقائد حملة عسكرية. يقول متحدّثاً عن قلعة مدينة بنزرت: «إن القلعة قديمة وفي حالة قصوى من التداعي والخراب ولا أخالها تصمد قريباً أمام أدنى غارة يشنها أوروبيون»[2]. وفي موضع لاحق، يستطرد الأمير في تحليل مطوّل حول مفهوم الشجاعة وأنواعها مستعرضاً بذلك براعته الفلسفية، إلا أنه سرعان ما يعود للواقع ليستخلص فائدة عملية لغزاة المستقبل. يقول: «في هذا السياق وعلى ضوء ما سمعت من مصادر شتى عن الحروب والمعارك التي عرفتها بلاد الجزائر وعنّابة وتونس، لا يسعني إلا أن أعبّر عن اقتناعي بأن أي ضابط حازم مقدام من ضباط فرساننا بمقدوره على رأس عشرين فارساً أن يواجه دون أيّما عناء وفي أية وضعية عسكرية كانت مائة من البدو المدججين بالسلاح والمحاربين حسب عادتهم. فهم لا يعرفون خططاً هجومية غير الإغارة العشوائية وما أن يفرغوا شحناتهم حتى يلوذوا بالفرار. وهم في حاجة على ما يقل عن ربع ساعة لشحن بنادقهم الرديئة والثقيلة. ثم إن قصورهم في استعمال المسدسات يعادل قصورهم في استعمال البنادق ولا يجيدون مقارعة السيوف ولا يستعملونها البتة. وأخيراً فإنهم رغم تحلّيهم بالشجاعة (إن استوجب الحال) يكرهون خوض المعارك إن لم تدفعهم مصالحهم الخاصة، ويفضّلون دوماً الكر والفر»[3].

ولا يبخل الأمير على الرواد والسياسيين بنصائحه بعد أن اعتبر أن

(1) سميلاسو، ص 336.
(2) سميلاسو، ص 31.
(3) سميلاسو، ص 365.

مطالعته وإقامته جعلتا منه خبيراً بشؤون جزء هام من الشرق أي بلاد البربر. لذلك يعتبر أن التبشير والتجارة يمكن أن يكوّنا رأس رمح الاختراق الأوروبي. يقول: «بفضل واسطة القنصل الأمريكي أمكن لي حضور حفل ديني أقامه مبعوث الجمعية الإنجليزية للتبشير بالإنجيل... وهذه الجمعية التي تركّز جلّ جهودها على اليهود لم تسجّل بعد أية حالة تنصّر على أتمّها.. (لكن) يكفي بشرى أن بذور الرحمة قد تمّ زرعها وسوف تؤتي أكلها في القريب العاجل بمشيئة الإله... وبناء على ما عسى أن تفتحه هذه البقاع من آفاق عالية في سبل الجنة أمام الحركة البروسية لبث الدعوة بين اليهود، فإني أعلق آمالاً عريضة على أن تؤدي معلوماتي عاجلاً إلى إيفاد مبشّر برليني إلى هنا عوضاً عن القنصل. وفي هذا الحال يرتجى منه أنه كلّما يفرغ من تجارة الإنجيل يتفرّغ لتجارة الحديد والخشب. كما يؤمل منه أن يقدّم عند الحاجة يد المساعدة إلى الرعايا البروسيين المعوزين الذين تقذف بهم الأمواج أو بعض المخاطر الأخرى إلى هذه السواحل القاسية»[1]. ويدل الأمير من يريد استثمار أمواله من الأوروبيين على كيفية التصرف المثلى، يقول من جملة ما ورد في صفحات عديدة: «لئن كان ممنوعاً على المسيحيين حق ملكية الأرض هنا، فإن ذلك يصير ممكناً عن طريق عملية شراء صورية يقوم بها أحد الأهالي يكون قد أمضى قبل ذلك تعهّداً صورياً لفائدة المسيحي المعني بالأمر.. ولا خوف على الأجانب الذين تحميهم قناصلهم، بحيث يستحيل أن نجد مكاناً آخر يتمتع فيه الأجنبي بما يتمتّعون به هنا من امتيازات... وفي حالة حصول لبس مع الحكومة أو الأهالي فإن الأمر يفصل في جل الحالات لفائدة الأجنبي... وفي مثل هذه الظروف يحقق التجار المسيحيون الذين تعرّفت عليهم أرباحاً طائلة مكنتهم بعد سنوات قليلة فقط من جمع ثروة كبيرة. وغالباً ما يساعدهم عامل آخر هو خمول الأهالي وتهورهم وعدم اكتراثهم فإذا احتاجوا إلى مال فإن هؤلاء القوم، الذين كادوا أن يكونوا همجاً، يركنون إلى السلف مقابل بيع محصول الزيتون وهو في شجره...

(1) سميلاسو، ص 77.

فيقع ابتزاز فوائد شهرية تقدّر بخمسة أو ستة أو حتى عشرة بالمائة دون وجود قانون يمنع ذلك. . . وكثيرون ممن صاروا أثرياء في أقل ما يمكن من الوقت، ثم ارتفعوا بعد ذلك إلى منزلة مكنتهم من استعمال أكبر وسائل المضاربة لإفقار السكان المساكين في هذا البلد الذي أغدقت عليه الطبيعة بسخاء»[1].

وفي باب النصائح العامة لا يفوت الأمير الإشارة إلى طرق استمالة البربر من الشرقيين سواء كانوا من الملوك أو الرعايا: «فالتعامل مع حكّام البربر هيّن للغاية إذا عرف المرء كيف يتصرّف معهم ويحوز على ثقتهم»[2]. وقد يتم ذلك بنفس الطريقة التي يستمال بها ود كل البدائيين المتخلّفين السذج. يقول في آخر رحلته: «على المسافر أن يزوّد نفسه في أوروبا بصندوق من الهدايا للجميع، من الباي إلى أبسط بدوي. وأنصح في هذا الباب باقتناء ساعات مختلفة الأنواع والكهرمان وحليٍّ من الذهب المزيّف والحجر الاصطناعية. ويستحسن ألا يشتري غير السلاسل والخواتم والقلائد مع اجتناب شارة الصليب. ويجب أن يكون ذلك مزركشاً ملوّناً كلعب الصغار وعديم الذوق قدر المستطاع. أضف إلى ذلك علب النشوق على ألا تكون مزخرفة بصور البشر (باستثناء صورة نابوليون العظيم). لأن الصور تثير الاستياء في هذه البقاع وتتنافى مع تعاليم الإسلام. . . زد على ذلك المناديل الحريرية الرخيصة للنساء وشيلانا وأقمشة من الكشمير الزائف، وكذلك السكاكين والمقصّات وحبّات المرجان ولآلئ من الزجاج ولعب الأطفال. . . وباروداً إنجليزياً رفيعاً وشتى الأسلحة مع الحرص على ألا تكون بسيطة الصنع. ولا تهم قيمة الأسلحة في حد ذاتها إذا كانت موشاة بالذهب والفضة والأحجار سواسية إن كانت حقيقية أو مزيّفة. ويمكن أن أنصح بشتى الخدع الطريفة وبعض ألعاب الشعوذة لتسلية الأهالي وإثارة دهشتهم. وإذا ما تسلّح المسافر بهذه الصفة فسوف يرى نفسه في كل مكان يحل به (إذا ما انتبه جيّداً ولم تقطع رقبته) مبجّلاً معظّماً ويدخل الفرحة في قلوب كل الشرائح ويترك

(1) سميلاسو، ص 298 ـ 299.

(2) سميلاسو، ص 429.

ذكرى حسنة»[1].

وماذا سيأخذ الأوروبي من الشرقي «العبيط»؟ لا يقصّر الأمير، كما أشرنا سابقاً، في مدح خصوبة الأرض. ففي صفاقس وعلى مشارف الصحراء تنبت الأشجار المثمرة دون ماء تقريباً وفي الرمال[2] وبنزرت (في الشمال) والمهدية في الوسط تحتلان موقعان استراتيجيان للتجارة البحرية[3]، «وفي البلد السمك والطرائد والمعادن لا سيما الحديد والرصاص وعلى ما يقال الذهب والفضة والنحاس»[4]. فكل هذه الخيرات تنتظر المعمّرين البروسيين الذين خاطب الأمير في شأنهم الباي ووعده بكل خير[5]. وفي انتظار الموافقة يورد بوكلير نصائح عملية مفيدة تمثّل زبدة احتكاكه بالشرقيين طيلة الرحلة: «... يتحتم معاملة هؤلاء القوم معاملة خاصة تجمع بين الحزم والحذر. ورؤساؤهم لا يجدون صعوبة في ذلك لأنهم يعاملونهم معاملة العبيد ولهم من السلطة والقوّة ما يخوّل لهم ذلك. أما إذا كان الرئيس غريباً عنهم ومسيحياً فإنهم يعتبرونه (مهما كانت مرتبته) أقل منزلة منهم بحكم تحيّزهم الديني. لذا وجب على الغريب والمسيحي إلى جانب الحزم والحذر أن يستعمل مصلحتهم الشخصية. لذلك أتصرّف معهم بطريقة وسط بين التهديد بعقاب الباي والوعد بمكافأة شخصية. وهو ما يسمح لي، ودون أن يتفطّنوا لذلك، بتحقيق ما أريد وكأني رئيسهم الحقيقي»[6].

### «ملك الشرق المُتَوَّج»

تختلط في سطور الأمير بوكلير موسكاو الحقيقة بالخيال والإعجاب

(1) سميلاسو، ص 417 ـ 418.
(2) سميلاسو، ص 48.
(3) سميلاسو، ص 297 ـ 300.
(4) سميلاسو، ص 102.
(5) سميلاسو، ص 420.
(6) سميلاسو، ص 295.

بالصدمة وخيبة الأمل، وتتمازج أحاسيس العثور على الفردوس (الشرقي) المفقود بأطماع الأوروبي المغامر الباحث عن المغامرة والكنوز. كما تتقاطع منافع الشخص الباحث عن الإثارة لينقلها لقرائه والساعي لإنقاذ ذاته من أوروبا مضجرة مع أطماع قوى عظمة تحاول أن تتفهم واقع فضاء معادٍ تحاول إخضاعه. ويحاول بوكلير أن يوفّق في رحلته بين ما هو شخصي وما هو اجتماعي وما هو رسمي سياسي، فلا يرمز لحلمه بل يصرّح بشكل لا يترك مجالاً للبس. يقول في خاتمة الرحلة: «بعد كل ما شاهدت في كامل بلاد البربر من أرض وعباد، لا أتصوّر مهمة وحياة أجمل ولا أخصب وأثرى من عيشة أمير شاب تنصّبه القوى الأوروبية إثر انهيار الإمبراطورية العثمانية نهائياً، إشفاقاً منها على هذا الربع المهمل مَلِكاً على شمال إفريقيا من حدود المغرب الأقصى إلى حدود برقة. (و) سينجح في تسخير كل حياته لتكوين البدو وترويض شعوب «القبايل» وتسوية أوضاع أهالي المدن من المسلمين وفي حكم الجميع بقبضة من حديد. بعد ذلك سينعم بسعادة كبيرة تتمثل في الإرتقاء بأمة أصيلة إلى مستوى أعلى... صارت أرضها صحراء نتيجة بطش أهلها وتقاعسهم لا غير. وبتحقيق هذا العمل فإن هذا الأمير يصبح أهلاً لكي تطلق عليه أجيال الحاضر والمستقبل لقب «المحيي»، ويكون أجدر به من نابوليون. لكن يجب أن يكون حكمه في بدايته حكم عصر الحديد ومنبثقاً من إرادة الملك المطلقة... أما أولئك الذين ينادون بإدخال الحضارة إلى هذه البقاع بتعاليم الإنسانية التي أسيء فهمها وبأساليب اللين المنحلّة فليسوا سوى أغبياء معتوهين. فلا ينفع مع شعوب هذه البقاع سوى الصرامة الشديدة والمستمرّة والعدل الذي لا يعرف الانحياز... وأكبر معروف يمكن أن تسديه إلى السماء هو أن تصطفيني في مستقبل أيامي (التي أؤمن بها كل الإيمان) لهذه الوظيفة، وأن تزودني في نفس الوقت، في رحمتها الإلهية، بما يتطلّب ذلك من خصال»[1].

ليست هذه الفقرة، التي أوجزناها، هلوسات أمير طموح يبحث عن

(1) سميلاسو، ص 413 ـ 414.

مجد وشهرة في أوروبا تضيق بأبنائها فحسب، بل إنها تجسيد رائع لعقلية الغربي كما تبدو من خلال نظرته للشرقي وما يعده له من مستقبل. إن هذه الفقرة تطرح بشكل لا لبس فيه ودون حاجة لكبير عناء وتأويل الأساطير المؤسسة للغرب وهو يستشرق. فهناك:

* أسطورة الشرق الثري الذي ينام فيه الشرقي على كنوز لا يقدّرها حق قدرها أو يجهلها تماماً.
* أسطورة الغربي الذي يحمل على عاتقه وحده مهمة استخراج هذه الكنوز، والتي لولاه لبقيت في غياهب الأرض.
* أسطورة المهمة التحضيرية للغربي، التي يقود بمقتضاها الشرقيين (وغيرهم من شعوب الأرض) إلى الجنة بالسلاسل إن لزم الأمر.
* أسطورة الشرقي الذي قد يكون يمتلك حضارة في الماضي السحيق، لكنه الآن مجرّد بربري بدائي يعجنه الغربي المتحضر كالصلصال الخام فيصنع منه ما يشاء.
* أسطورة الشرقي الهمجي الذي يُعجِز الحكام بتمرّده وتقلّبه، ولا يفلح في ترويضه إلا الغربي بحضارته وحزمه وعلمه.
* أسطورة الغربي المغامر الذي يحوّل تراب الأرض ذهباً، ويخرج (كشطّار الخرافات الشرقية) وبوسائل متواضعة إمبراطورية من رمال الصحراء كما فعل الشاطر نابوليون.

وقد تتفرع كل أسطورة من هذه الأساطير إلى أساطير فرعية، لا تزال لها امتداداً تذكيه الأفلام ووسائل الإعلام في مخيلة الغرب إلى اليوم. ومن يقرأ كتاباً مثل «أعمدة الحكمة السبعة» لـ «توماس لورنس» يلمس التشابه الكبير بين الأمير الألماني والضابط الإنجليزي. فهناك نفس الادعاء التبسيطي لفهم نفسية الشرقي مع الاعتراف بتشابكها وتعقيدها، ونفس الإعجاب الذي يتملّق الغربي لأنه كلما كال له المديح كلما بدت سيطرته عليه أروع. وهناك نفس الادعاء بإخراج الشرقيين الحيارى من تخلّفهم وتحقيق طموحاتهم في الحياة الدنيا. وهناك نفس سراب الوهم الخادع بأن الغربي يجد كشخص وكفرد من الغرب

معنى لحياته في أوروبا عقلانية مغلقة الآفاق. لا يشبه الأمير بوكلير موسكاو لورنس في نواح شخصية أخرى، كما لا يشبه المستشرقين الأكاديميين في مناهج البحث والعرض الكتابي، لكن الكل يتفق في رسم ملامح الشرق والشرقي بالشكل الذي يلائم أكثر.